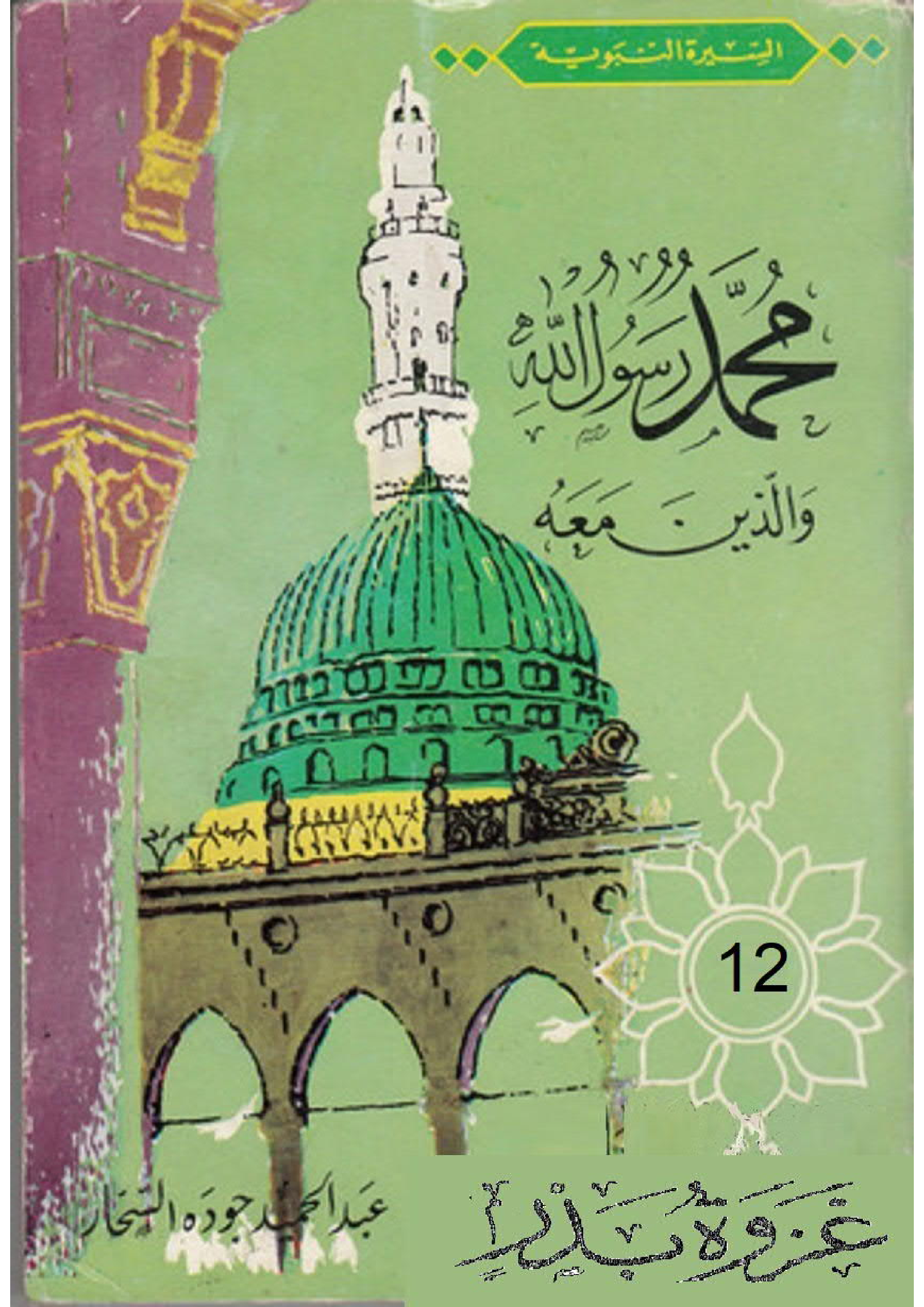

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
12
غزوة بدر
عبد الحميد جودة السحار

السيرة النبوية



غزوة بدر

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون .
إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من
الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا
يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله
إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله
العزيز الحكيم . »

(قرآن كريم)

١

مدينة الرسول تنبض بالحياة . المهاجرون والأنصار فى عدة القتال فقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان مقبلا فى عير قريش من الشام ، فندب المسلمين إليهم وقال :

— هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا . حتى إن كان الرجل ليساهم أباه فى الخروج ، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيثمة فقال سعد لأبيه :

— إنه لو كان غير الجنة آثرتك به ، إنى لأرجو الشهادة فى وجهى هذا .

فقال خيثمة :

— آثرنى وقر مع نسائك .

فأبى سعد فقال أبوه :

— إنه لابد لأحدنا من أن يقيم .

فاستهما فخرج سهم سعد .

وأبطأ عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله بشر كثير من أصحابه وكرهوا خروجه ، وتخلف بعضهم من أهل النيات

والبصائر لم يظنوا أنه يكون قتال إنما هو خروج للغنيمة ، ولو ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا منهم أسيد بن حضير .

وبقي عثمان بن عفان إلى جوار زوجه رقية بنت محمد عليه السلام فقد اشتد بها المرض وطاف بها شبح الموت .

وراح عثمان يرنو إلى وجه رقية الذابل فيغص حلقه بالدموع وتنثال على رأسه الذكريات ، فغدا يرى نفسه وهو يحنو على بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن هاجرا إلى الحبشة فرارا بدينهما وهما على قرب عهدهما بالزواج . وسرعان ما احتل أقطار رأسه وجه رقية المشرق الصبوح وقد زاده الانفعال جمالا لما كانت تصغي إلى جعفر بن أبي طالب وهو يحاور النجاشي وأصحابه يوم أن جاء عمرو بن العاص يدبر لغدره . ورن في أغواره صوت رقية الرصين وهي تحدث المهاجرات حديثا يريح النفوس ويبعث في الصدور الآمال ، فحرك أشجانه وزاد في مخاوفه فهو يحب زوجه حبا ملك عليه كل حواسه . ولكن كان أخشى ما يخشاه أن تموت رقية فينقطع نسبه لرسول الله عليه السلام .

وتذكر عثمان يوم أن جاء الناعي ينعي الطاهرة أم المؤمنين . إنه حزن لموت خديجة حاضنة الإسلام حزنا كادت أن تنفطر له كبده ، ولكن حزن رقية على أمها كان ثقيلا هزه من الأعماق ، إنه ما انفك يواسيها وإن كانت نياط قلبه تتمزق ، وإن كان على بينة من فداحة المصاب ، كان يكفكف دموعها بينا العبرات تبلل روحه وتسيل في قلبه على سيدة نساء قريش ، وعلى رقية

التى كانت تضطرب من الأسى كريشة فى مهب الرياح .

ورأى عثمان بعين خياله يوم أن ركب البحر مع رقية والزبير ابن العوام وعبد الله بن جحش وأبو سلمة وامرأته هند بنت أبى أمية زاد الركب ، إنها كانت مستبشرة تهلل وجهها الجميل بالفرح دون أن تكترث بالموج ، فقد كانت فى طريقها إلى مكة ، إلى أبيها الحبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى طال إليه الشوق وهوى إليه الفؤاد .

إن عثمان لايستطيع أن ينسى تلك اللحظة النابضة بأنبل مشاعر البشرية ، ساعة أن ارتمت رقية فى أحضان أبيها وهو يغمرها بقبلات الحنان . إنه استشعر أن الكون كله يخفق بالرقة حتى إنه لم يستطع أن يحبس دموعه التى جرت من شدة الانفعال .

ورنا عثمان إلى وجه زوجه الذابل الذى علاه الاصفرار ففرت سكينته ولفه حزن شديد امتزج بخوف قاتل ، فالأنفاس المضطربة التى كانت تلتقطها رقية فى جهد كانت على الرغم من خفوتها تعلن بأعلى صوت فناء صاحبتها ، وأنها تسرى فى نفس الطريق الذى سرت فيه أم المؤمنين من قبل ، سبيل الخلود فى ملكوت الله .

إنه حملها إلى يثرب بعد أن أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة وهو يمنى النفس بحياة مستقرة سعيدة يعمل فيها لآخرته ودنياه . وقد كانت أول أيامه بالمدينة مشرقة بالآمال فقد وضعت رقية طفلهما عبد الله بن عثمان فكاد يطير من الفرح أن صار له ولد جده رسول الله عليه السلام ،

وإنها لهناءة الدنيا وسعادة الأبد أن يكون له ذرية من نسل خير البشر عليه صلوات الله .

وغمر الدار استبشار وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يغمر حفيده بفيض من حنانه ورقته ، وتوجت الشفاه بسمات فسروره عليه السلام كان يسر المهاجرين والأنصار ، ولكن هذه البهجة سرعان ماغاضت فقد نقر ديك عبد الله بن عثمان فمات ، فذاقت رقية مرارة الثكل ، ولما كانت مرهفة الحس فقد سقطت صريعة الحمى .

وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور ابنته التى تحملت فى سبيل دينها كل الآلام وصنوف العذاب ، وكان يرى الفناء يدب فيها فيتلوى ألما ، وود أن يبقى إلى جوارها يخفف عنها بعض ما تقاسى فهو يحبها بكل عواطفه ، ولكن ما إن سمع بأبى سفيان مقبلا من الشام بعير قريش حتى ندب المسلمين للخروج ، فحبه الله كان يفوق كل حب .

كان رسول الله قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان خبر العير ، فنزلا إلى كشد الجهنى بالموضع المعروف بالتخيار من وراء ذى المرة على الساحل ، فاجارهما وأنزلهما فلم يزالا مقيمين فى خباء وبر حتى مرت العير فرفعهما على نشز من الأرض ، فنظر إلى القوم وإلى ماتحمل العير وجعل أهل العير يقولون لكشد :

— يا كشد هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟

— أعوذ بالله ! وأنى لمحمد عيون بالنخيار ؟

فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا وخرج معهما كشد خفيرا حتى أوردهما ذا المروة ، وساحلت العير فأسرعت وسار بها أصحابها ليلا ونهارا فرقا من الطلب .

وجاء إلى رسول الله عبد الله بن عمرو بن حزام فقال :

— يارسول الله لقد سرني منزلك هذا وعرضك فيه أصحابك وتفاءلت به ، إن هذا منزلنا بني سلمة حيث كان بيننا وبين أهل حسيكة ماكان ، فعرضنا يارسول الله ها هنا أصحابنا فأجزنا من كان يطيق السلاح ورددنا من صغر عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حسيكة وهم أعز يهود كانوا يومئذ فقتلناهم كيف شئنا فذلت لنا سائر يهود إلى اليوم . وأنا أرجو يارسول الله أن نلتقي نحن وقريش فيقر الله عينك منهم .

وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله بخرباء فقال له أبوه عمرو بن الجموح :

— ماظننت إلا أنكم قد سرتم :

— إن رسول الله (ص) يعرض الناس بالبقع .

— نعم الفال ! والله إني لأرجو أن تغنمـوا وأن تظفروا بمشركي قريش . إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى الحسيكة .

وانطلق رسول الله عليه السلام وأمامه رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب وهي العقاب وكانت من مرط لعائشة ، وكان علي ابن عشرين سنة تتألق الشجاعة في عينيه ويشع التقى من وجهه ولا غرو فهو ربيب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ،

والثانية مع سعد بن معاذ . وسلم عليه السلام اللواء إلى مصعب بن عمير . وسار جيش المسلمين حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبقع ، وهى بيوت السقيا وهى متصلة ببيوت المدينة ،فكان عبده رباح يستقى له من بئر غرس مرة ومن بيوت السقيا مرة .

وتأهب المسلمون للسير وقد لبس رسول الله درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ، وأمر صلى الله عليه وسلم حين فصل من بيوت السقيا أن تعد المسلمون ، فوقف لهم عند بئر أبي عتبة وهى على ميل من المدينة فعدوا ، فعرض أصحابه ورد من استصغر ، وكان ممن رده عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت .

ورأى سعد بن أبي وقاص أخاه عمير بن أبي وقاص يتوارى فقال له :

— مالك يا أخى ؟

— إنى أخاف أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرنى فيردنى ، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة .

فعرض على رسول الله (ص) فاستصغره فقال :

— ارجع .

فبكى عمير فرق له فأجازه .

وحين فصل صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا قال :

— اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك .

ودعا لأهل المدينة فقال :

— اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة ، وإنى محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها من الوباء بخم (١) . اللهم إنى حرمت ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم خليلك مكة .

ثم خرج عليه السلام فى خمسة وثلاثمائة رجل : من المهاجرين أربعة وستون وباقيهم من الأنصار ، بعد أن رد أبا لبابة واستعمله على المدينة . واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس فى المدينة ، وخلف عاصم بن عدى على أهل قباء وأهل العالية بعد أن أصبحت تلك البقاع مسرحا للمنافقين وأعداء الإسلام .

وخرج حبيب بن يساف نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة ، وكان ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم ، ففرح المسلمون بخروجه معهم ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستبشر بخروجه فقال له :

— لايصحبنا إلا من كان على ديننا . ارجع فانا لانستعين بمشرك .

وراح حبيب يزين لرسول الله صلى الله عليه وسلم خروجه معهم والنبى عليه السلام يؤكد أن المسلمين لا ينتصرون بأهل الشرك على أهل الشرك ، فلما رأى حبيب صدق رسول الله عليه السلام مع مبادئه قال :

---

(١) خم : على ميلين من الجحفة .

— نؤمن بالله ورسوله .

— نعم .

فأسلم وسار مع المهاجرين والأنصار بعد أن أشرق قلبه بنور اليقين ، وقد وطد النفس على الجهاد فى سبيل الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما ، فلما رأى ما يتحمل المسلمون من جهد فى السير أفطر ونادى مناديه :

— أفطروا .

فلم يفطروا ، فعاد مناديه ينادى :

— يا معشر العصاة إنى مفطر فأفطروا .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين بعيرا فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيرا ، فكان رسول الله عليه السلام وعلى بن أبى طالب ومرثد يعتقبون بعيرا ، فكان إذا كانت عقبة النبى صلى الله عليه وسلم قال له رفيقاه :

— اركب حتى نمشى معك .

فيقول عليه السلام :

— ما أنتما أقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، ورفاعة وخلاد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصارى يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبى كبشة يعتقبون بعيرا ، وكان سعد بن أبى وقاص من أعظم أصحاب النبى عليه السلام عنه غناء وأكثرهم قوة على المشى وأرماهم لسهم ، لم يركب خطوة

ذاهبا ولا راجعا ، وكان يعقد لأخيه عمير بن أبي وقاص حمائل سيفه من صغره .

وغدت الأجراس المعلقة في أعناق الإبل تصلصل فأمر رسول الله عليه السلام بالأجراس أن تقطع حتى لا ترشد أصواتها أعداءه إلى مطلعه .

ولم يكن في الجيش إلا فرسان : فرس المقداد بن الأسود ويقال له سبحة ، وفرس الزبير بن العوام ويقال له اليعسوب ، ولكن كانت بين الجوانح قلوب عامرة باليقين نابضة بحب الله .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا حتى سلك بطن العقيق ثم سلك طريق المكيمن حتى خرج على بطحاء ابن أزهر فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك فبنى منها مسجدا فصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ، ثم صار إلى بطن ملل وتربان بين الحفيرة وملل .

فلما كانوا بتربان قال رسول الله عليه السلام لسعد بن أبي وقاص :

— انظر إلى الظبي .

فصوب سعد سهمه إلى الظبي وقد وضع رسول الله عليه السلام رأسه بين منكب سعد وأذنه ، ثم قال :

— اللهم سدد رميته .

فما أخطأ سهم سعد عن نحر الظبي .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج سعد يعدو

فأخذ الظبي وبه رمق فذبحه ، فحملوه حتى نزلوا قريبا ، فأمر به رسول الله عليه السلام فقسم بين أصحابه .

وفى أثناء الطريق بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له أصحاب الرسول عليه السلام :

— سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال :

— أفيكم رسول الله ؟

— نعم :

فسلم عليه ثم قال :

— إن كنت رسول الله فأخبرنى بما فى بطن ناقتى هذه .

فقال له سلامة بن سلامة بن وقش :

— لا تسل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقبل على أنا أخبرك عن ذلك : نزوت عليها ففى بطنها منك سخلة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— مه ! أفحشت على الرجل .

ثم أعرض عن سلامة فقد كان عليه السلام يكره فحش القول .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقب عودة طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد فقد بعثهما يتحسسان خبر عير أبى سفيان . حتى إذا ما نزل المسلمون بواد يقال له ذفران أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم . فقال لأصحابه :

— إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول

فما تقولون ؟ ألعير أحب إليكم من النفير ؟

إنه يخيرهم بين الغنيمة والحرب فقالت طائفة منهم :

— بلى . العير أحب إلينا من لقاء العدو .

وارتفعت أصوات تقول :

— هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ؟ إنا خرجنا للعير .

— يارسول الله عليك بالعير ودع العدو .

فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم وأوحى الله إليه : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وقام أبو بكر فقال وأحسن : ثم عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد فقال :

— يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

(١) موضع بناحية اليمن .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— أشيروا على أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فاذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ :

— والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

— أجل .

— فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال عليه السلام :

— سيروا وأبشروا فان الله تعالى وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

٢

لحقت قريش بالشام فى عيرها ، وكانت العير ألف بعير وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى العير حتى إن المرأة لتبعث بالشئ التافه ، وإن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبى أحيحة إما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف . وكان لبنى مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهبا ، وللحارث بن عامر ابن نوفل فيها ألفا مثقال . وإن فى القافلة لخمسين ألف دينار .

ولما لحقت قريش بالشام أدركهم رجل من جذام فأخبرهم أن محمدا عليه السلام قد كان عرض لعيرهم فى بدأتهم وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتهم قد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم .

ولما كانوا بالزرقاء وهم منحدرون إلى مكة لقوا رجلا فقال لهم :

— قد كان عرض محمد لكم فى بدأتكم فى أصحابه .

— ماشعرنا .

— بلى . فأقام شهرا ثم رجع إلى يثرب وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفون فهو الآن أحرى أن يعرض لكم ، إنما يعد لكم الأيام عدا فاحذروا على عيركم وارتئوا آراءكم ، فوالله ما أرى عدد ولا كراع ولا حلقه (سلاح) .

فأجمع القوم أمرهم فبعثوا ضمضم بن عمرو وكان فى العير ، وقد كانت قريش مرت به وهو بالساحل معه بكران فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشا أن محمدا قد عرض لعيرهم .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال قد رأت رؤيا أفزعتها فقصتها على أخيها العباس والتمست منه أن يكتمها ، ولكن العباس قصها على صديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة واستكتمه إياها . فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش فى أنديتها .

وسخر أبو جهل بالعباس وبنى عبد المطلب وهزئ برؤيا عاتكة . فلم تملك العباس إلا أن ينكر أن تكون عاتكة رأت شيئا . فلما جاء المساء غدت نساء عبد المطلب يلمن العباس للينه مع أبى جهل . فغدا فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد فغضب فدخل المسجد فرأى أبا جهل . وفيما هو يشتد إليه إذا بصوت ضمضم بن عمرو الغفارى يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

— يامعشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث !

واقشعرت جلود أهل مكة . نزلت بأفئدتهم رهبة . كانوا يسخرون من رؤيا عاتكة لما قالت إنها رأت راكبا أقبل على بعير

له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم فى ثلاث ، وأن الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينا هم حوله قام به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ؛ ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم فى ثلاث . ثم قام به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل تفتتت فما بقى بيت من بيوت مكة ولادار إلا دخلتها منها فلقة .

فاذا بالرؤية التى جعلت من رجال بنى عبد المطلب ونسائهم هدفا للسخرية تبدو لكأنما كانت نبوءة ، فقد جاء ضمضم مكة بعد ثلاث ليال من تلك الرؤيا ، وكادت الهزيمة أن تشيع فى نفوس الرجال فيقعدوا عن الخروج لولا ذلك الحقد الذى يملأ قلوب أبى جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث على محمد ابن عبد الله ، فراحوا يحثون القوم على الخروج لاستئصال شأفة ابن أبى كبشة الذى فر من القتل يوم أن حاصروه فى داره فى مكة ليفتكوا به ، ويؤكدون أن الفرصة مواتية للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره فى المدينة ويقطع عليهم تجارتهم مع الشام .

وقام سهيل بن عمرو فى رجال من قريش فقال :

— يامعشر قريش ، هذا محمد والصباة من شبانكم وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيمتكم (١) ، فمن أراد ظهرا فهذا ظهر ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

---

(١) التجارة : وقيل العطر خاصة .

وقام زمعة بن الأسود فقال :

— إنه واللات والعزى ما نزل بكم من أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم ، فأوعبوا (فاستعدوا) ولايتخلف منكم أحد ، ومن كان لاقوة له فهذه قوة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لايروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم .

وقال طعيمة بن عدى :

— يامعشر قريش والله مانزل بكم أمر أجل من هذه ! أن يستباح عيركم ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم . والله لا أعرف رجلا ولا امرأة من بنى عبد مناف له نشي (وزن نواة من ذهب) فصاعدا إلا وهو فى هذه العير ، فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقويه .

وقام حنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فحضا الناس على الخروج ولم يدعوا إلى قوة ولا حملان . فقيل لهما :

— ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان ؟

— والله مالنا مال . وما المال إلا لأبى سفيان .

ومشت قريش إلى أبى لهب فقالوا له :

— إنك سيد من سادات قريش وإنك إن أنت تخلفت عن النفير يعتبر بلك غيرك من قومك . فاخرج أو ابعث رجلا .

— واللات والعزى لا أخرج .

فقال له أبو جهل :

— أقم يا أبا عتبة ، فوالله ما خرجنا إلا غضبا لدينك ودين آبائك .

كان أبو لهب يشفق من رؤيا عاتكة فبعث مكانه العاص بن هشام وكان قد استرقه لدين فى الميسر .

كان أناس قد أجمعوا على القعود فكان أبو جهل وعقبة والنضر يسخرون منهم ، يقولون لبعضهم : اقعد فانما أنت من النساء . ويثيرون فى البعض النخوة والأحقاد فخرج كثير من الناس وهم كارهون ، وقد خرج العباس بن عبد المطلب وبعض بنى المطلب وهاشم وهم يمنون النفس بألا يكون قتال بين الفريقين ، فقد أخرجوا كرها ولولا خشيتهم من الناس ما تجهزوا وما أجمعوا المسير .

وتأهبوا للخروج إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخذوا بأستار الكعبة وقالوا :

— اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين . اللهم لانعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق .

وساروا : أبو جهل ينهش صدره الحقد ويأكل قلبه الحسد ، وعقبة بن أبى معيط يتلهف على اللقاء ليسفك دم ابن عبد الله الذى توعده بالقتل إن التقى به خارج مكة . والنضر بن الحارث يتلمظ تلمظ الحيات قد استولى على ذهنه رسول الله عليه السلام وكان طيفه هدفا لسيفه وكل ما فى جعبته من سهام . فهو لا يستطيع أن ينسى الآيات التى نزلت فيه تسخر منه وتتوعده بعذاب النار .

وكان عتبة بن ربيعة على جمل أحمر . إنه قد ألقى سمعه كثيرا إلى محمد عليه السلام وكان رأيه أن تخلى بينه وبين القبائل فان قتلوه كفوهم دمه وثأر بنى هاشم . وإن ظهر كان ذلك لقريش. ولولا عناد أبى جهل وحقده على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان عتبة من أتباع رسول الإسلام .

إنه خارج للقتال وهو كاره . فان كان حليفه ابن الحضرمى قد قتله واقد بن عبد الله التميمى فى الشهر الحرام لما بعث محمد ابن عبد الله ابن عمته عبد الله بن جحش على رأس سرية فى شهر رجب . فهو على استعداد لأن يدفع دية حليفه وأن تحقن الدماء لولا إصرار ابن الحنظلية أبى جهل بن هشام على قطع دابر محمد وأصحابه ليخلو له وجه قريش .

وكان حكيم بن حزام على بعيره شارد اللب يستشعر عدم راحة لذلك الخروج الذى دفعهم إليه ابن الحنظلية دفعا . إنه صاحب دار الندوة وله رأى نافذ فى شئون مكة . ولكن الأحداث قد جعلته ينقاد إلى أبى جهل دون تدبر ويخرج لقتال المسلمين الذين انطلقوا ليستولوا على أموالهم التى مع أبى سفيان .

إنه لا يستطيع أن ينسى أيام أن حصروا بنى هاشم فى الشعب . كانت عمته خديجة فيهم وكان قلبه يكاد يتمزق لما يفكر أنه يأكل بينا عمته الحبيبة تتلوى من الجوع . فكان يسوق العير التى تأتيه من الشام تحمل الحنطة إلى الشعب ثم يضرب أعجازها فتدخل عليهم فيأخذون ما عليها من [illegible] . وهو لا يستطيع أن ينسى أن الطاهرة سيدة نساء قريش قد ماتت وهى على الدين الذى

جاء به زوجها محمد بن عبد الله . إنه لو أطاع مشاعره للوى عنق بعيره وانقلب إلى أهله لولا خشيته من الناس !

إنه ماتوجه وجها قط كان أكره إليه من مسيره إلى بدر ، وما بان له فى وجه قط ما بان له قبل أن يخرج ، إنه استقسم بالأزلام فكان فى كل مرة يخرج ما يكره ، ولولا ابن الحنظلية ما مضى لوجهه .

وأطلق أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد لخياله العنان فاذا به يذكر قيامه فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش وتعاهدت فيها أن لا تبيع لبنى هاشم ولا تبتاع منهم وأن لا تزوجهم وألا تتزوج فيهم . إنه قال لأبى جهل فى المسجد : لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به . وما زال مع أصحابه حتى أخرج بنى هاشم من الشعب وحطم ما ضرب حولهم من حصار . فان كان القضاء على محمد بن عبد الله وصحبه هو الهدف ففيم كان قيامه فى نقض الصحيفة ؟ !

وماكان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث ابن عامر فانه قال :

— ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالى فى العير تلف ومال بنى عبد مناف أيضا .

— إنك سيد من ساداتها أفلا تردعها عن الخروج ؟

— إنى أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ولا أرى أحدا به طرق (قوة) تخلف إلا عن علة ، وأنا أكره خلافها وما أحب أن تعلم قريش ما أقول ، على أن ابن الحنظلية رجل مشئوم على

قومه ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب .

وجاء ضمضم بن عمرو وكانت للحارث عنده أياد فقال :

— أبا عامر إنى رأيت رؤيا كرهتها وإنى لكاليقظان على راحلتى ، وأراكم أن واديكم يسيل دما من أسفله إلى أعلاه .

فقال الحارث :

— ما خرج أحد وجها من الوجوه أكره له من وجهى هذا .

— والله إنى لأرى لك أن تجلس .

— لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة ، فاطو هذا الخبر عن قريش فانها تتهم كل من عوقها عن المسير .

وكان الأخنس بن شريق مع بنى زهرة أخوال محمد بن عبد الله ، إنهم خرجوا كارهين كما خرج العباس وبنو المطلب وبنو هاشم ، ولولا الملامة لقعدوا مع القاعدين . ولولا عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام ما خرج منهم أحد لقتال ابن آمنة زهرة بنى زهرة ، ولو وجدوا سببا للنكوص لقفلوا راجعين .

وكان أمية بن خلف يرتجف من الخوف . إنه رأى رؤيا أفزعته فكان قلبه كقلب الطير كلما خفقت الريح خفق معها ، وجعل يرمق عقبة بن أبى معيط فى غيظ فهو الذى قال له لما أراد أن يقعد : يا أبا على استجمر ، فانما أنت من النساء .

فأحنقه ذلك القول حتى قال : قبحك الله وقبح ماجئت به .

ثم تجهز ليخرج مع الناس .

دفع شياطين قريش : أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الناس للخروج ليشفوا مرض قلوبهم . وكان كثير من الخارجين كارهين للقتال يتمنون أن تفلت العير من أيدي المسلمين حتى يجدوا عذرا للعودة بسلام ، فرؤيا عاتكة وإن سخروا منها كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

ونزلوا بمر الظهران فنحر لهم أبو جهل بن هشام عشر جزائر ، وراحت القيان يضربن بالدفوف وعكفوا على الشراب ثم نهضوا يستأنفون الرحلة ، حتى إذا بلغوا عسفان حطوا الرحال ونحر لهم سفيان بن أمية تسع جزائر . ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد بعد أن طافوا باللات عشر جزائر . وساروا من قديد فصلوا بها ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشر جزائر .

وجلس عند الثنية البيضاء عداس غلام عتبة وشيبة الذي قبل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن لقي من سفهاء الطائف أشد ألوان الاضطهاد ، وراح الناس يمرون ، إذ مر عليه عتبة وشيبة ابنا ربيعة فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غرزهما وهو يقول :

— بأبي أنتما وأمي ! والله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما تساقان إلا إلى مصارعكما !

وإن عينيه لتسيلان دمعا على خديه . ومر به العاص بن منبه بن الحجاج فوقف عليه حين ولى عتبة وشيبة فقال :

— ما يبكيك ؟

— يبكيني سيدا أهل الوادي يرحلان إلى مصارعهما ويقاتلان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— وإن محمدا لرسول الله !

فانتفض عداس انتفاضة واقشعر جلده ثم بكى وقال :

— إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافة .

وكان مع قريش رجل من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له جهم بن الصلت ، فوضع رأسه فأغفى ثم قام فزعا فقال لأصحابه :

— هل رأيتم الفارس الذى وقف على ؟

— لا .

فقال وهو مبهور الأنفاس :

— قد وقف على فارس فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البخترى وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو . ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه .

فقال له أصحابه :

— إنما لعب بك الشيطان .

وشاعت هذه الرؤيا فى المعسكر فاذا بالخوف ينزل بالقلوب . وإذا برؤيا عاتكة تستولى على النفوس فتقشعر الجلود ، وإذا برهبة من المجهول تجثم على الأفئدة . وبلغت الرؤيا أبا جهل فتفجرت غضبه ورأى أن خير ما يفعله أن يسفه صاحبها ليعيد الطمأنينة إلى القلوب الواجفة وإلى النفوس التى ذهبت شعاعا فقال :

— قد جئتم بكذب بنى عبد المطلب مع كذب بنى هاشم . هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول نحن أو محمد وأصحابه .

٣

ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب عليه السلام هو وأبو بكر رضى الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ :

– لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

– إذا أخبرتنا أخبرناك .

فقال الشيخ :

– ذاك بذاك ؟

– نعم .

– فانه قد بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فان كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

وذكر المكان الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال :

– وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فان كان الذى أخبرنى به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

المكان الذى نزلت به قريش ، فلما فرغ من خبره قال :

– من أنتما ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— نحن من ماء .

ثم انصرفا عنه فقال الشيخ :

— من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله عليه السلام إلى أصحابه وهو يفكر فى قريش ، ورجع صوت عمر يتردد فى نفسه : « يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت — والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته وأعدد لذلك عدته » . وراح صدى صوت سعد بن معاذ يسرى فى ذاكرته عليه السلام : « إنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا فنحن تبع لأمرك ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك » .

فرفت ابتسامة رضا على شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أمسى عليه السلام بعث على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى بدر يلتمسون الخبر فأصابوا إبلا لقريش تحمل الماء معها غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص ، فأتوا بهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى فقالوا :

— لمن أنتما ؟

وظنوا أنهما لأبى سفيان فقالا :

— نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء .

فضربوهما فلما أوجعوهما ضربا قالا :

— نحن لأبي سفيان .

فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه و صلاته قال :

— إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش .

والتفت عليه السلام إلى الغلامين وقال :

— أخبراني عن قريش .

— هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى (جانب المرتفع) .

— كم القوم ؟

— هم والله كثير عددهم شديد بأسهم .

— ما عدتهم ؟

— لا ندرى .

وجهد النبي عليه السلام أن يخبراه كم هم فأبيا صلى الله عليه وسلم :

— كم تنحرون كل يوم ؟

— يوما تسعا ويوما عشرا .

فقال صلى الله عليه وسلم :

— القوم مابين التسعمائة والألف .

ثم قال للغلامين :

— فمن فيهم من أشراف قريش ؟

— عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحرث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال :

— هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها .

وأفلت من الأسر عجير فكان أول من جاء قريشا بخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فنادى :

— يا آل غالب ! هذا ابن أبي كبشة وأصحابه وقد أخذوا سقاءكم .

فماج العسكر ، وكان حكيم بن حزام وصحبه فى خباء لهم على جزور يشوون من لحمها ، فما هو إلا أن سمعوا الخبر فامتنعوا عن الطعام ، ولقى بعضهم بعضا ولقى حكيم عتبة فقال عتبة :

— يا أبا خالد ما أعلم أحدا يسير أعجب من مسيرنا ؛ إن عيرنا قد نجت وإنا جئنا إلى قوم فى بلادهم بغيا عليهم .

— أراه لأمر محمٍ ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شؤم ابن الحنظلية .

— يا أبا خالد أتخاف أن تبيتنا القوم ؟

— لأنت آمن من ذلك .

— فما الرأى يا أبا خالد ؟

— نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم .

— هذا الرأى .

فتحارسوا حتى أصبحوا ، فقال أبو جهل فى سخرية :

— هذا عن أمر عتبة كره قتال محمد وأصحابه ، إن هذا لهو العجب . أتظنون أن محمدا وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله لأنتحين ناحية بقومى فلا يحرسنا أحد .

فتنحى أبو جهل ناحية وإن السماء لتمطر عليه ، فقال عتبة :

— إن هذا لهو النكد .

ثم مضى رجلان من الصحابة إلى ماء بدر فنزلا قريبا منه عند تل هناك ، ثم أخذا شنا لهما (قربة) يستقيان فيه ، وإذا بشخص على الماء ، وإذا جاريتان تتخاصمان وتمسك إحداهما الأخرى على الماء تطلب منها ما عليها من دين ، فتقول المدينة لصاحبتها :

— إنما يأتى العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك الذى لك .

وإذا بالشخص الذى كان على الماء يقول :

— صدقت .

ثم خلص بينهما والرجلان من الصحابة يصغيان إلى ذلك الحوار الدائر بين الجاريتين وذلك الرجل الذى على الماء . فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بما سمعا .

— هو على ما تقول ، أفنرجع من بين أهل العسكر ؟
فجاء أبو جهل بن الحنظلية فقال :
— ما تريدان ؟
— الرجوع . ألا ترى إلى رؤيا عاتكة وإلى رؤيا جهم بن الصلت مع قول عداس لنا ؟
— تخذلان والله قومكما وتقطعان بهم .
— هلكت والله وأهلكت قومك !
وبلغ أبا سفيان إصرار أبى جهل على أن يقيم ببدر ثلاثة أيام ينحر الجذور ويطعم الطعام ويسقى الخمر ، فلم يستصوب رأيه وقال :
— هذا بغى والبغى منقصة وشؤم . والله لئن أصاب محمد النفير ذللنا إلى أن يدخل مكة علينا .
وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال :
— لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .
وانطلق أبو جهل وكفار قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من الماء ، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بعيدا من الماء بينهم وبين الماء رحلة . فظمىء المسلمون وأصابهم ضيق شديد وراح الشيطان يوسوس فى صدورهم : « تزعمون أنكم أولياء الله وأنكم على الحق وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش ، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة » .. فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا ، وكان الوادى لينا كثير التراب تسيخ فيه الأقدام فإذا بالمطر ينهمر من السماء ، فانطلق المسلمون تحت الشجر والجحف يستظلون تحتها من المطر وما كان فيهم قائم

إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة ويكثر فى سجوده أن يقول :

— يا حى . يا قيوم .

وأصاب المسلمين نعاس شديد أمنة من الله ، واستمر عليه السلام فى قيام وسجود وابتهال طوال الليل حتى أصبح ، فإذا المطر أطفأ الغبار ولبد الأرض وطهر المسلمين وشربوا منه وملئوا الأسقية وسقوا الركائب . وأصاب قريشا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا إلى الماء فكان المطر نعمة للمؤمنين ونقمة على المشركين .

وطلع الفجر فنادى رسول الله ﷺ :

— الصلاة عباد الله .

فجاء الناس من تحت الشجر والجحف فصلى بهم رسول الله ﷺ وحرض على القتال فى خطبة خطبها ، ثم خرج عليه السلام يسابق قريشا إلى الماء فسبقهم عليه حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به ﷺ فقال له الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله عليه السلام فى بساطة :

— بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

لو كان وحيا للزم المنذر الصمت ، وما دام رسول الله عليه السلام قد قال إنه الرأى فإن للمنذر رأيا أفضل ، وإن الدين النصيحة ، ويا طالما نزل رسول الله ﷺ على رأى أصحابه إذا ما ظهرت فيه مصلحة أو خير ، فقال المنذر :

— يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى

أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لا ينزح فتنزله ، ثم تغور ما عداه من القلب ثم تبنى عليه حوضا فتملأه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ فى رضا :

— لقد أشرت بالرأى .

كان رأيا صائبا فقبله عليه السلام وإن كان معارضا لرأيه ، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى ﷺ حوضا على القليب الذى نزل به فملأه ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

وخطب رسول الله ﷺ المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر فى البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم ، تدركون به النجاة فى الآخرة فيكم بنى الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شىء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه وأراكم من آياته وما أعزكم به بعد الذلة فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم ، وابلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم إليه ألجأنا ظهورنا وبه اعتصمنا

وعليه توكلنا وإليه المصير ، ويغفر الله لى وللمسلمين » .

كان الليل قد انتصف وكان الجهد قد نال من المسلمين فأسلموا جنوبهم للرقاد ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء سعيد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ وقال :

— يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة فى الجهاد ونية . ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير . يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير وقال :

— أو يقضى الله خيرا من ذلك يا سعد .

كان رسول الله عليه السلام على ثقة من نصر الله فقد وعده إحدى الطائفتين ، فإذا كانت العير قد أفلتت فلن تفلت قريش فقد رأى مصارع القوم .

وبنى العريش لرسول الله ﷺ فوق تل مشرف على المعركة ، وقال المسلمون :

— من مع رسول الله ﷺ ؟

كانوا يخشون أن يهوى إليه عليه السلام أحد من المشركين ، فلم يدن منهم أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ قائلا :

ـ لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه .

ووقف أبو بكر وسعد بن معاذ على باب العريش فى نفر من الأنصار ، فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكثيب . ولما رأى رسول الله ﷺ قريشا وقد أقبلت بالدروع الساترة والجموع الوافرة والأسلحة الشاكية قال :

ـ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وعجبها وفخرها تحادك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فنصرك الذى وعدتنى .

اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتنى بالثبات ووعدتنى إحدى الطائفتين وإنك لا تخلف الميعاد . اللهم احنهم الغداة .

واطمأنت قريش فأرسلوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا :

ـ احزر لنا أصحاب محمد .

فخرج عمير لينظر عدة جيش المسلمين فاستجال بفرسه حول عسكر النبى ﷺ ، ثم رحل إليهم فقال :

ـ ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمينا أو مددا .

فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا ثم رجع إليهم وقال :

ـ ما رأيت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا(١) تحمل المنايا ، ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعى لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم ، والله ما نرى أن نقتل منهم رجلا حتى

---

(١) النوق تبرك على قبر صاحبها فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت ويقصد الإبل تحمل الموت .

يقتل رجل منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

وصادف ذلك القول هوى فى نفس حكيم بن حزام فهو يكره قتال زوج عمته الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإن خرج كارها لينقذ نفسه من تقريع ابن الحنظلية أبى جهل بن هشام ، فمشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال :

ـ يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها إلى آخر الدهر ؟

ـ وما ذاك يا حكيم ؟

ـ ترجع بالناس .

فقام عتبة خطيبا على جمل أحمر ، فقال رسول الله عليه السلام :

ـ إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر .

وقال عتبة :

ـ يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته ، ارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

يا قوم اعصبوها اليوم برأسى (أى اجعلوا عارها متعلقا بى) وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .

وولدت على الشفاه همسات :

ـ ودم ابن الحضرمى ؟

فخف حكيم بن حزام إلى عتبة وقال له :

— تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى وتحمل ما أصاب محمد من تلك العير .

فقال عتبة :

— نعم قد فعلت ، ونعم ما قلت ونعم ما دعوت إليه .

وصار عتبة يجيل جمله فى صفوف قريش يقول :

— يا قوم ! أطيعونى فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمى وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك . يا معشر قريش أنشدكم الله فى هذه الوجوه التى تضىء ضياء المصابيح أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنها عيون الحياة .

كان عتبة بن ربيعة الرجل الذى حنكته السنون يضيق بقريش أن تلقى أقواما ليس لهم ملجأ إلا سيوفهم فجعل يزين لهم الرجوع ، فلما رأى رسول الله عليه السلام راكب الجمل الأحمر يجيله فى صفوف قريش قال :

— يا على ، ناد حمزة .

وكان حمزة أقربهم للمشركين ، فلما سمع نداء على اتجه إلى ابن أخيه رسول الله عليه السلام وفى وجهه إجلال وتوقير ، فقال له ﷺ :

— من صاحب الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟

— هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام :

— انطلق لابن الحنظلية فقل له هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك ؟

فجاءه حكيم فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه ، وإذا بعامر ابن الحضرمي واقف على رأسه. إنه أخو عمرو بن الحضرمي الذى قتله واقد بن عبد الله في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ، وهو لا يرى إلا الحرب ليشفي غليل نفسه وهو يقول :

— قد فسخت عقدى من عبد شمس وعقدى إلى بنى مخزوم .

كان يهدد بفسخ ما بينه وبين عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام إذا لم تثأر قريش من قتلة أخيه ، فلم يعره حكيم التفاتا بل قال لأبى جهل :

— يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟

فقال أبو جهل في غضب :

— أما وجد رسولا غيرك ؟

— لا ، ولم أكن لأكون رسولا لغيره .

ثم قفل حكيم بن حزام بن خويلد راجعا إلى عتبة لئلا يفوته من الخير شيء ، وعتبة متكيء على إيماء بن رحضة الغفارى وقد أهدى إلى المشركين عشر جزائر ، فطالع أبو جهل الشر في وجهه فقال لعتبة :

— انتفخ سَحْرك(١) ؟

قال له عتبة : ستعلم .

فسل أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه ، فقال إيماء بن رحضة :

— بئس الفأل هذا .

---

(١) السحر : الرئة فيقال للجبان « انتفخ سحره » لأن انتفاخه يرفع القلب إلى الحلقوم وهو مثل لشدة الخوف .

٤

دب الشقاق فى معسكر قريش قبل أن ينشب القتال ، فقد تبادل عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام أفحش السباب ، قال أبو جهل لعتبة :

— أنت تقول ارجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟ والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته (أى قلت له : اعضض على بظر أمك) ، أن قد ملأت رئتك خوفك رهبا . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

والتفت إلى حكيم بن حزام وقال :

— ما بعتبة ما قال : ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه أبو حذيفة فقد تخوفكم عليه .

وأعجبت الفكرة قائلها فقام أبو جهل فى الناس فقال :

— يا معشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا لأن ابنه مع محمد ، ومحمد ابن عمه فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه .

فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال :

— سيعلم أينا أفسد لقومه .

وحسب أبو جهل أنه يقلب القوم على رأى عتبة لما ذكر أن ابنه فى صفوف المسلمين ، وما دار بخلده أنه أيقظ الذكريات الرقيقة من مضاجعها وحرك أنبل ما فى الإنسان من مشاعر ، وشائج القربى

والصداقات ، فإذا بكل من فى عسكر قريش يذكر الأقارب والخلان فى عسكر رسول الله ﷺ ، فاحتلت رأس عبد الرحمن بن أبى بكر صورة أبيه الشيخ الجليل ، وإذا بالعباس بن عبد المطلب يفكر فى ابن أخيه نبى الله الذى خرج معه ليلا إلى العقبة ليستوثق له من الخزرج أن يمنعوه ما دام قد أبى إلا الانحياز إليهم . إنه كان يبغى سلامته فى تلك الليلة الفاصلة أفيحاربه اليوم ليسفك دمه ؟!

وتذكر أخاه حمزة وابن أخيه على بن أبى طالب وكل من فى صفوف المسلمين من بنى المطلب وبنى هاشم ، فإذا به يتمنى من كل قلبه ألا يكون قتال ، ولولا خشيته من نشوب حرب بين أبى جهل ورهطه وبين بنى هاشم لقفل راجعا كما رجع الأخنس ببنى زهرة .

وتذكر أمية بن خلف رفيق العمر عبد الرحمن بن عوف ، إنه صديقه العزيز الذى فرق بينهما الإسلام . ترى لو اختلط الجمعان والتقى هو والصديق الحبيب وجها لوجه أيستطيع أحدهما أن يهوى بسيفه ليقضى على حبيبه ؟!.

وتذكر رجال بنى تيم الأحبة من بنى تيم الذين يقفون مع رسول الله عند ماء بدر ، وفكر بنو مخزوم فى إخوانهم المسلمين من بنى مخزوم ، وإذا بكل قبيلة من قريش تشفق على أبنائها الذين أبوا إلا الإسلام ، فوقعت الهزيمة فى قلوبهم قبل أن يشهروا السيوف ويدور القتال .

كان العقل يقضى بأن يعود أبو جهل بمن معه بعد أن أفلت أبو سفيان بالعير ، ولكن الله قد بدد ذلك الصوت لأن الله أراد أمرا ليوطد لدينه فى الأرض ، فجعل أبا جهل يركب رأسه وينقاد لغروره ويصر

على خوض غمار القتال ويقول دون وعى منه : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد !

والتفت المشركون إلى عسكر المسلمين فجعلهم الله فى أعينهم قليلا ليستدرجهم إلى مصارعهم ، وجعل الله المشركين فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم حتى إن عبد الله بن مسعود التفت إلى رجل بجواره وقال :

— أتراهم سبعين ؟

— أراهم مائة .

وأنزل الله تعالى :﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾.

وكان قباث بن أشيم فى صفوف المشركين ، فلما ألقى نظرة على عسكر المسلمين هجس فى قلبه : « لو خرجت نساء قريش بأكمتها لردت محمدا وأصحابه » .

وأراد رسول الله ﷺ أن يستنفد كل وسائل الصلح قبل أن يخوض القتال ، فما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فبعث إليهم عمر بن الخطاب سفيرهم فى الجاهلية ليقول لهم :

— ارجعوا فإنه أن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه

منى .

فتلقفها حكيم بن حزام فقال :

ـــ قد عرض نصفا فاقبلوه ، فوالله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف .

وصوبت العيون إلى أبى جهل الطاغية الذى فرض إرادته على الجميع ، فإذا به يقول :

ـــ والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم .

وخشى أبو جهل أن تنتصر رغبة السلام على القتال فبعث إلى عامر ابن الحضرمى أخى المقتول وقال :

ـــ هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ويخذل عن القتال وقد تحمل دية أخيك من ماله ويزعم أنك قبلتها . ألا تستحى أن تقبل الدية من مال عتبة وقد رأيت ثأرك بعينيك ؟ فقم فاذكر مقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف إسته وحثا عليه التراب ثم صرخ :

ـــ واعمراه ! واعمراه !

فثارت نفوس قريش بينا كان أخوه العلاء بن الحضرمى فى صفوف المسلمين ينظر وقد ملىء أسى على ما يفعل أخوه من إثارة الأحقاد ، ورأى الأسود بن أبى سلمة المخزومى وكان رجلا سيىء الخلق شديد العداوة لرسول الله ﷺ أن يشعل نار الحرب قبل أن تلعب بالرءوس دعوة السلام فقال :

ـــ أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه .

وخرج الرجل الشرس ليقتحم عسكر المسلمين فخرج إليه حمزة

بن عبد المطلب يلعب بسيفه ، فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه بنصف ساقه ، فطارت وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشجب رجله دما . ولم يجزع لما أصابه بل غدا يحبو إلى الحوض حتى اقتحمه وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

وقضى مقتل الأسود بن أبى سلمة المخزومى على آخر أمل فى السلام ، فراح عتبة بن ربيعة يلتمس خوذة ليدخلها فى رأسه فما وجد فى الجيش بيضة تسع رأسه لعظمه فتعمم ببرد له . ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئا .

ورأى حكيم بن حزام عتبة يعمد إلى القتال فقال له حكيم :

ـــ مهلا مهلا يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله .

كان عتبة يحاول أن يقنع ابن الحنظلية بالرجوع ، وأما وقد أخفق ونشب القتال فلا بد أن يكون أول من يخوض غماره ، فخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء هم : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ، فقال عتبة :

ـــ من أنتم ؟

ـــ رهط من الأنصار .

ـــ ما لنا بكم من حاجة .

فأمرهم عليه السلام بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيرا ، ونادى منادى عتبة وشيبة والوليد :

ـــ يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فقال النبى ﷺ :

— قوموا يا بنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاءوا ببطلانهم ليطفئوا نور الله .

قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا على .

فلما قاموا ودنوا قالوا لهم :

— من أنتم ؟

كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح ، قال عبيدة :

— عبيدة بن الحرث .

وقال حمزة :

— أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله .

وقال على :

— أنا على بن أبى طالب .

— نعم . أكفاء كرام .

ومشى عبيدة وكان أسن الثلاثة إلى عتبة ، واتجه حمزة إلى شيبة ، وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الأبصار وقد حبست الأنفاس ، فالجولة الأولى كانت بين أبناء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى هاشم . وغدت الدعوات ترف على شفاه المهاجرين والأنصار بعد أن ابتهلت بها الأفئدة التى عمرت بأنوار اليقين ، فلو قتل عبيدة وحمزة وعلى فى أول لقاء لكانت فاجعة رسول الله ﷺ فيهم تعز عن العزاء .

وكان أبو بكر ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينا كان عمر يختلس النظرات إلى وجه رسول الله ﷺ وهو يرصد القتال فيستشعر ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجدانه أن ينتصر رجال بنى هاشم

ليسعد عليه السلام بنصر المسلمين ونجاة الأحباب .

وكان فى عسكر المشركين رجال يرجون أن يظهر عبيدة وحمزة وعلى وإن كانوا على غير دينهم ، فوشائج القربى كانت أقوى مما يربط بينهم وبين السماء .

ولم يمهل حمزة أن قتل شيبة فأشرقت وجوه المسلمين بالأمل وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على الوليد فندت من شفاه المسلمين صيحات فرح بينا غامت وجوه المشركين بالأسى ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وقعت الضربة فى ركبة عبيدة فأصاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه فأضجعوه إلى جانب موقفه فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه ، فوضع خده عليها وقال لرسول الله عليه السلام :

ــ ألست شهيدا يا رسول الله ؟

ــ أشهد أنك شهيد .

وعدل رسول الله ــ ﷺ ــ صفوف أصحابه بسهم فى يده ، فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف ، فطعنه فى بطنه بالسهم الذى لا نصل له ولا ريش وقال :

ــ استو يا سواد .

ــ يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدنى من نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ، فلم يغضب عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :

— استقد .

فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال ﷺ :

— ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد فى انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم يستبقوا نبلهم ولا يرموه على بعد ، فالرمى على البعد يخطىء فيضيع النبل بلا فائدة ، ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار فى خوف على رسول الله — ﷺ — كرة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله عليه السلام إن احتاج إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال :

— لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب فقتله عامر بن الحضرمى بسهم أرسله إليه ، وأصاب حارثة بن سراقة سهم غرب وهو يشرب من الحوض ، فإذا برسول الله — ﷺ — يتذكر ما كان بينه وبين حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد

استقبله :

— كيف أصبحت يا حارثة ؟

— أصبحت مؤمنا بالله حقا .

— انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة .

— يا رسول الله ، عزلت نفسى من الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها .

— أبصرت فالزم ، أنت عبد بذر الله الإيمان فى قلبه .

— ادع الله لى بالشهادة .

فدعا له رسول الله — ﷺ — بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق فى العريش ، وطفق — ﷺ — يناشد ربه ويقول :

— اللهم لا تودع منى ولا تخذلنى ، أنشدك ما وعدتنى ، اللهم أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .

وما زال يدعو ربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، وشق على أبى بكر تعب النبى — ﷺ — فى إلحاحه بالدعاء فأخذ أبو بكر رداءه عليه السلام وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه وقال :

— كفاك تناشد ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

كان الصديق فى مقام الرجاء والنبى — ﷺ — فى مقام الخوف ، فإذا به يخفق خفقة وهو فى العريش ثم ينتبه ويقول :

— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس

يقوده على ثناياه النقع .

ثم خرج رسول الله — ﷺ — إلى الناس فحرضهم وقال :

— والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن :

— بخ بخ ! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء !

ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى يقتل فى سبيل الله .

ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، فأنزل الله تعالى عند ذلك : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدُّكم بألف من الملائكة مردفين﴾ .(١)

(١) الأنفال ٩

وعدل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صفوف أصحابه بسهم فى يده ، فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف ، فطعنه فى بطنه بالسهم الذى لا نصل له ولا ريش وقال :

— استو يا سواد .

— يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدنى من نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ، فلم يغضب عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :

— استقد .

فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال — صلى الله عليه وسلم :

— ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد فى انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن تمس جلدى جلدك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم يستبقوا نبلهم ولا يرموه على بعد ، فالرمى على البعد مخطئ فيضيع النبل بلا فائدة ، ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع

نفر من الأنصار فى خوف على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كرّة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله عليه السلام إن احتاج إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال :

— لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب فقتله عامر بن الحضرمى بسهم أرسله إليه ، وأصاب حارثة بن سراقة سهم غرب وهو يشرب من الحوض ، فاذا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتذكر ما كان بينه وبين حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد استقبله :

— كيف أصبحت ياحارثة ؟

— أصبحت مؤمنا بالله حقا .

— انظر ما تقول ، فان لكل قول حقيقة .

— يارسول الله ، عزلت نفسى من الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها .

— أبصرت فالزم ، أنت عبد بذر الله الإيمان فى قلبه .

— ادع الله لى بالشهادة .

فدعا له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق فى العريش ، وطفق — صلى الله عليه وسلم — يناشد ربه ويقول :

— اللهم لا تودع منى ولا تخذلنى ، أنشدك ما وعدتنى ، اللهم أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .

وما زال يدعو ربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، وشق على أبى بكر تعب النبى — صلى الله عليه وسلم — فى إلحاحه بالدعاء فأخذ أبو بكر رداءه عليه السلام وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه وقال :

— كفاك تناشد ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك .

كان الصديق فى مقام الرجاء والنبى — صلى الله عليه وسلم — فى مقام الخوف ، فاذا به يخفق خفقة وهو فى العريش ثم ينتبه ويقول :

— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع .

ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الناس فحرضهم وقال :

— والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن :

— بخ بخ ! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء !

ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى يقتل فى سبيل الله .

ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، فأنزل الله تعالى عند ذلك : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . (١)

---

(١) الانفال ٩

٥

راح المؤمنون والمشركون يقتتلون ، ونظر سراقة بن مالك إلى المسلمين فاذا به يرى الموت يطل من أسيافهم وهم يتلمظون تلمظ الحيات ، فانخلع قلبه وتذكر يوم أن خرج فى أثر الرسول عليه السلام وهو فى هجرته إلى المدينة فرارا من قريش وما كان من سقوطه عن ظهر جواده كلما دنا من نبي الله ، فوقع فى نفسه أنه يقاتل فى سبيل الضلال فنكص على عقبيه ، فقال رجل لسراقة :

ـ ياسراقة ، أتزعم أنك لنا جار !

ـ إنى برئ منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله والله شديد العقاب .

فتشبث به الحرث بن هشام أخو أبى جهل وقال له :

ـ والله لا أرى إلا خفافيش يثرب .

وإذا بضربة تصوب إلى صدره فيسقط وينفلت سراقة وبعض من معه خارجين من المعركة .

وخشى أبو جهل أن يفت ذلك فى عضد المشركين فقال :

ـ يامعشر الناس لايهمنكم خذلان سراقة فانه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عقبة وشيبة والوليد فانهم قد عجلوا ، واللات والعزى لانرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال .

لا تقتلوهم ، خذوهم باليد .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه :

— إنكم قد عرفتم أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا إكراها لا حاجة لهم بقتالنا . فمن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله . ومن لقي أبا البختري فلا يقتله .

كان أبو البختري ممن نهض في تمزيق الصحيفة الظالمة ورفع الحصار الذي ضربته قريش على بني المطلب وبني هاشم لمناصرتهم رسول الله عليه السلام . فلماذا ذكر العباس دون غيره من بني هاشم ؟ أكان العباس قد أسلم وكتم إسلامه ليكون عينا له على قريش . أكان قلم مخابراته عليه السلام ! ؟

فقال أبو حذيفة :

— أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ لئن لقيته لألحمنة السيف .

رأى أبو حذيفة مقتل أبيه عتبة بن ربيعة وعمه شيبة وأخيه الوليد فهزته المأساة على الرغم من صدق إيمانه فقال مقالته :

فلما بلغت رسول الله عليه السلام قال لعمر :

— يا أبا حفص . أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟

كان ذلك أول يوم كناه فيه رسول — الله صلى الله عليه وسلم — بأبي حفص . فقال عمر في تأثر وانفعال :

— يارسول الله . دعني أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق .

ولم يدعه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يضرب عنق أبي

حذيفة ، فقد بلغ الرسول أربه باعلان أنه لن يرضى عن قاتل العباس ، ولو كان العباس كافرا ما اهتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث بالحق والعدل كل هذا الاهتمام . ولكنه كان عليه السلام يخشى أن يقتل مظلوما وأن يفقد قلم مخابراته فى مكة .

ودنا عوف بن الحرث بن عفراء من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟

كان عوف يريد أن يرضى ربه غاية الرضا . فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— غمسه يده فى العدو حاسرا .

فنزع درعا كانت عليه فقذفها . ثم أخذ سيفه ليقاتل حتى يقتل .

وقاتل معبد بن وهب زوج هريرة بنت زمعة أخت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بسيفين . ثم أخذ رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — جفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم قال :

— شاهت الوجوه ! اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم .

وكان على ميمنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أبو بكر . وكان على ميسرته على بن أبى طالب . وكان على ميمنة قريش الحارث بن عامر بن نوفل . وعلى ميسرتهم زمعة بن الأسود . وعلى خيل المشركين الحارث بن هاشم .

وتصاف المســلمون وتزاحفوا وهم لا يسلون السيوف ولـكنهم قد انتضوا القسى . فقد أمرهم رسول الله عليه السلام ألا يسلوا السيوف حتى يغشوهم ، وغدا المسلمون يهتفون بشعارهم : يا منصور أمت .. يا منصور أمت . فاذا بالأرض تزلزل تحت أقدام أعدائهم .

ولقى الزبير بن العوام عبيدة بن سعيد بن العاص على فرس عليه لأمة(١) كاملة لايرى منه إلا عيناه ، وهو يقول :

ــ أنا أبو ذات الـكرش .

فقد كانت له صبية صغيرة ، وكان لها بطن وكانت فى يد الزبير عنزة (شبيه العكاز . أطول من العصا وأقصر من الرمح لها زج فى أسفلها) ، فطعن بها فى عينه فوقع وراح الزبير يطأه برجله على خده حتى أخرج العنزة متعقفة(٢) وأخرج حدقته .

وأقبل عاصم بن أبى عوف السهمى لما جال الناس واختلطوا وكأنه ذئب وهو يقول :

ــ يامعشر قريش عليكم بالقاطع مفرق الجماعة الآتى بما لايعرف محمد . لا نجوت إن نجا !

فاعترضه أبو دجانة فاختلفا ضربتين . فضربه أبو دجانة فقتله ووقف على سلبه يسلبه . فمر به عمر بن الخطاب فقال :

ــ دع سلبه حتى يجهض العدو وأنا أشهد لك به .

وأقبل معبد بن وهب أحد بنى عامر بن لوى فضرب أبا دجانة ضربة برك منها أبو دجانة كما يبرك الجمل . ثم انتهض

---

(١) الدرع . (٢) عليها الدم .

وأقبل على معبد فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئا حتى يقع معبد فى حفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دجانة عليه فذبحه ذبحا وأخذ سلبه .

وراح عقبة بن أبى معيط يتقدم ليس له هدف إلا أن يصل إلى رسول الله عليه السلام ، فقد بدت العداوة من فمه لما قال يوم أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا راكب الناقة القصواء هاجرنا
عما قليل ترانى راكب الفرس
أعلُّ رمحى فيكم ثم أنهله
والسيف يأخذ منكم كل ملتبس

إنه قال ذلك وقد بلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو خارج ليحقق ما قاله فى شعره ، فغاية أمانيه أن يسدد رمحه إلى قلب رسول الله عليه السلام .

ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل فقالت :

— أبو الحكم لا يخلص إليه ، فان ابنى ربيعة عجلا وبطرا ولم تحام عنهما عشيرتهما .

فاجتمعت بنو مخزوم فأحدقوا به فجعلوه فى مثل الحرجة ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبى جهل رجلا منهم فألبسوها عبد الله ابن المنذر . فصمد له على فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول :

— أنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة فكر عليه حمزة

وقد لبس ريشة معلمة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول :

— خذها وأنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها حرملة بن عمرو فصمد له على عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم فأبى أن يلبسها .

وراح عبد الرحمن بن عوف يخوض فى صفوف الكافرين فاذا بغلامين ليس منهما واحد إلا وقد ربطت حمائل سيفه فى عنقه لصغره ، فالتفت إليه أحدهما فقال :

— يا عم ، أيهم أبو جهل ؟

— وما تصنع به يابن أخى ؟

— بلغنى أنه يسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وآله فحلفت لئن رأيته لأقتلنه أو لأموتن دونه .

فأشار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال :

— من أنتما ؟

— ابنا عفراء .

فخرج يعدو إليه كأنه سبع ولحقه أخوه ، وغدوا يضطربون بالسيوف فاذا بأبى جهل يسقط وهو يخبط فى دمه .

وتقدم عمر بن الخطاب فاذا به أمام خاله العاص بن هاشم ابن المغيرة ، فرفع عمر سيفه وهوى به على خاله فاذا به كأمس الدابر ، ثم تركه وتقدم يخوض المعركة لإعلاء كلمة الله .

وراح نوفل بن خويلد الأسدى ابن العدوية يصيح بصوت له زجل ، رافعا عقيرته :

— يامعشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— اللهم اكفنى نوفل بن العدوية .

ورأى نوفل قتل أصحابه . فأقبل يصيح وهو مرعوب :

— ما حاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون من تقتلون ؟ أما لكم فى اللبن من حاجة !

كان يرمز إلى الفداء ، إلى النوق الحلوب . فأسره جبار بن صخر فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه :

— يا أخا الأنصار ، من هذا واللات والعزى ؟ إنى لأرى رجلا ، إنه ليريدنى !

— هذا على بن أبى طالب .

— تالله ما رأيت كاليوم رجلا أسرع فى قومه !

فصمد له على عليه السلام فضربه فنشب سيف على فى ترسه ساعة ، ثم نزعه فضرب به ساقيه ودرعه مشتمرة فقطعهما ، ثم أجهز عليه فقتله .

وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث عن القتال فالتقى هو وعلى عليه السلام ، وقتله على .

وخرج على فى أثر المشركين ، فاذا برجل منهم على كثيب رمل يقاتل سعد بن خيثمة ، فقتل المشرك سعد بن خيثمة والمشرك مقنع فى الحديد وكان فارسا ، فاقتحم عن فرسه فنادى :

— هلم يا بن أبى طالب إلى البراز .

فعطف على عليه السلام عليه ، فانحط الرجل إليه مقبلا وكان على رجلا قصيرا ، فانحط راجعا لكى ينزل إليه ، كره أن يعلوه فقال :

— يابن أبى طالب فررت !

— قريبا مفر ابن الشتراء .

فلما استقرت قدما على وثبت ، أقبل ابن الشتراء فلما دنا من على ضربه ، فالتقى على الضربة بالدرقة فوقع سيف ابن الشتراء ، فضربه على عليه السلام على عاتقه وهو دارع فارتعش ، ولقد قط سيف على درعه فظن على أن سيفه سيقتله . فاذا بريق سيف من ورائه فطأطأ على رأسه ويقع السيف فيطن يقحف رأس ابن الشتراء بالبيضة . وإذا بصوت يقول :

— خذها وأنا ابن عبد المطلب .

والتفت على من ورائه فاذا هو حمزة عمه ، والمقتول طعيمة ابن عدى .

فالتفت على إلى طعيمة وقال :

— والله لا تخاصمنا فى الله بعد اليوم أبدا .

وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا فاحتبسهم آباؤهم : قيس بن الوليد بن المغيرة . وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة . والحارث بن زمعة بن الأسود . وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص ابن منبه بن الحجاج . فلما قدموا بدرا ورأوا قلة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآله قالوا :

— غر هؤلاء دينهم .

وقال عبد الرحمن :

ــ والله أن لا بد منه . ألا نجمل رجلا إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟

فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون الجمل .

وانهزم قباث بن أشيم الكنانى فيمن انهزم وغدا ينظر فإذا المشركون فى كل وجه ، فجعل يقول فى نفسه :

ــ ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فبينا هو يسير معه إذ لحقهما من خلفهما ، فقال لصاحبه :

ــ أبك نهوض ؟

ــ لا والله ما بى .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجرى فى الدروب ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .

وأسر من بنى هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر كعب بن عمرو ، وعقيل بن أبى طالب أسره عبيد بن أوس الظفرى ، ونوفل بن الحارث ، ومن بنى عبد شمس عقبة بن أبى معيط ، ومن بنى أمية عمرو بن أبى سفيان أسره على بن أبى طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطفئوا نور الله .

وألقى الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخففوا منها فراح المسلمون يجمعونها ، فبينا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا فإذا أمية بن خلف

فقال له :

— إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وآله نهانا عن قتلك .

وكان مع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن مليحة فقال أبو البختري :

— وزميلي ؟

— والله ما نحن بتاركي زميلك . ما نهانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا عنك وحدك .

— إذا والله لأموتن أنا وهو جميعا ، لاتتحدث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة .

فنازله المجذر وارتجز أبو البختري فقال :

لن يسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

ثم اقتتلا فقتله المجذر .

كان أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في جيش قريش . إنه خرج كارها القتال ، فلما دفع أبو جهل بقريش دفعا إلى خوض غمار المعركة امتشق أبو العاص سيفه وهو يرجو ألا يلقى محمدا عليه السلام ، فيا طالما زاره في بيت خالته خديجة قبل أن يتزوج زينب وألقى إليه سمعه وأعجب بمنطقه وحسن خلقه . وما أكثر ما اجتمع به بعد زواج ابنته وكان له خير أسوة لولا ذلك الدين الذي جاء به ابن عبد الله .

وراح علي بن أبي طالب يفعل بقريش الأفاعيل . فما من رهط من بيوت شرف قريش إلا وقد قتل منه رئيسا . إنه ترك

حنظلة بن أبي سفيان مجدلا بسيفه فأوغر عليه صدور الأمويين ، وقتل الوليد بن عتبة بن ربيعة فقلب عليه بني عبد شمس ، واشترك مع عمه فى القضاء على طعيمة بن عدى ، وترك الحارث ابن زمعة بن الأسود كأمس الدابر فأصبح هدف أحقاد بنى أسد ، وزاد فى حقدهم أنه ثنى بنوفل بن خويلد بن أسد ، وأضاف إلى الأحقاد أحقاد بنى تيم لما صرع عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بضربة من حسامه .

وقطع عليه السلام رأس أبى قيس بن الوليد أخى خالد بن الوليد فاكتسب عداوة بنى المغيرة وبنى مخزوم ، وأضاف إليه مسعود بن أبى أمية بن المغيرة وحاجز بن السائب المخزومى ، فكانت قلوب بنى المغيرة وبنى مخزوم كلها عليه .

وقتل من بنى سهم خيرة رجالهم : جدل منبه بن الحجاج ونبيه بن الحجاج والعاص بن منبه بن الحجاج وأبا العاص بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، فكان عليه السلام فتى بدر أطاح برءوس أبناء الشرف فى قريش فى سبيل الله ، فبذر الغل فى الصدور وراح يقاسى مرارة الأحقاد على مر الأيام وإن جاء الإسلام ، حتى آخر الأنفاس !

وكان حمزة أسد الله ورسوله يمشى إلى الكفار وقد أطل من سيفه المنون ، فما إن يرى صناديدهم ريشة النعام التى فى صدره حتى تنخلع قلوبهم ، فقد قتل سيدهم عتبة بن ربيعة وفارسهم عقيل بن الأسود بن المطلب وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن

مخزوم . إن صوته يجلجل بعد كل ضربة : « خذها وأنا ابن عبد المطلب » ، فتنخلع لها القلوب .

وارتفعت أصوات المسلمين من كل جانب .

— يامنصور أمت .

فاذا من بقى على قيد الحياة من المشركين لايدرون أين المفر . وراح حكيم بن حزام يسعى ويقول :

— قاتل الله ابن الحنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله إن النهار لكما هو .

كان حكيم متلهفا على أن يأتى الليل فيقصر عنه طلب القوم . وفيما هو يهرول وقد ولى الأدبار قد أدرك عبيد الله وعبد الرحمن ابنى العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه :

— انزل فاحمل أبا خالد .

وكان عبيد الله رجلا أعرج لا قوة له على المشى ، فقال عبيد الله .

— إنه لارُجلة (قوة) بى كما ترى .

وقال عبد الرحمن :

— والله أن لابد منه . ألا نحمل رجلا إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟

فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون الحمل . وانهزم قباث بن أشيم الكنانى فيمن انهزم وغدا ينظر فاذا المشركون فى كل وجه ، فجعل يقول فى نفسه :

— ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فبينا هو يسير معه إذ لحقا من خلفهما ، فقال لصاحبه :

ـ أبك نهوض ؟

ـ لا والله ما بى .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجرى فى الدروب ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .

وأسر من بنى هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر كعب بن عمرو ، وعقيل بن أبى طالب أسره عبيد بن أوس الظفرى ، ونوفل بن الحارث ، ومن بنى عبد شمس عقبة بن أبى معيط ، ومن بنى أمية عمرو بن أبى سفيان أسره على بن أبى طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطفئوا نور الله .

وألقى الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخففوا منها فراح المسلمون يجمعونها ، فبينا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا فاذا أمية بن خلف صديقه فى الجاهلية يساق كأنه جمل ومعه ابنه على ، فوقعت عينا أمية عليه فنادى :

ـ ياعبد الإله .

فأجابه عبد الرحمن فقال له أمية :

ـ أما لكم حاجة فى اللبن ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ؟

ـ امضيا .

— الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام .

وخر ساجدا شكرا لله .

وراح علي يقول :

— اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأتني ضربته ، وأضربه فاتقاني بيده اليسرى فأبانها السيف فكأني أنظر إلى وميض خاتم فى شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته فرأيت به الردع (الزعفران) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

وجاء المجذر إلى رسول الله — ﷺ — يعتذر عن قتل أبي البخترى بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح يوم أن نقض صحيفة قريش الجائرة وقال : « لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح ، فجعل يقص على النبى عليه السلام ما كان بينه وبين أبى البخترى ثم قال :

— والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا القتال ، فقاتلته فقتلته .

وبان الأسى فى وجه رسول الله — ﷺ — فقد كان من صفاته الوفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .

وغدا رسول الله — ﷺ — يتفقد القتلى فوقف على مصرع ابنى عفراء فقال :

— يرحم الله ابنى عفراء فإنهما قد شركا فى قتل فرعون هذه الأمة .

ورأى عليه السلام الحارث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، وأبا

قيس بن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن منبه بن الحجاج وقد هبرتهم أسياف المسلمين وتركتهم كأمس الدابر . إنهم كانوا أسلموا ورسول الله — ﷺ — بمكة ، فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة وفتنوهم فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فلما رأوا المسلمين قلة قالوا هازئين :

— غر هؤلاء دينهم .

فأنزل الله فيهم : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا »(١) .

وأمر رسول الله — ﷺ — بالقتلى أن يطرحوا فى القليب (البئر) فطرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه فتفرق لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة .

وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر — ﷺ — فى وجه أبى حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال :

— يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟

فقال أبو حذيفة فى صوت خافت فيه رنة أسى :

---

(١) النساء ٩٧ — ٩٩

— لا والله يا رسول الله ماشككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزنني ذلك .

فدعا له رسول الله — ﷺ — بخير وقال له خيرا .

وجاء رجل من المدينة يسعى ، إنه يحمل أنباء ستدخل السرور على قلوب المسلمين ، أنباء انتصار الروم على فارس وقد كانت آيات الله البينات تدوى بين جنبيه دويا فتجعله يود لو أن راحلته تطير ليزف البشرى إلى رسول الله — ﷺ — وكانت كل خوالجه ترتل : « ألم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1] » .

وكان الرجل يحسب أن فرح المؤمنين بنصر الله إنما سيكون لغلبة الروم على الفرس وحسب . فما كان يدرى أن المؤمنين قد انتصروا نصرهم الكبير على الكافرين في بدر وأن الفرح قد ملأ أفئدتهم وأن نبأ انتصار الروم على فارس تحقيقا لوعد الله إنما سيزيد في استبشارهم ويثبت إيمانهم .

إن كسرى الثاني قد اضطهد أشراف قومه وسامهم سوء العذاب وساعد على تدهور الدين حتى فسدت الأخلاق والعقيدة وعبادات

---

(١) الروم ١ — ٦

— لله ولرسوله .

فأقلع بيضته عن قفاه وقال ابن مسعود :

— إني قاتلك .

— لست بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشد ما لقيته اليوم لقتلك إياى ، ألا يكون ولىٌّ قتلى رجل من الأحلاف أو من المطيبين !

فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه ، ثم قفل عائدا إلى رسول الله عليه السلام وعنده عقيل بن أبي طالب أسيرا ، فقال وهو يتهلل بالفرح :

— قتلت أبا جهل .

فقال له عقيل :

— كذبت ما قتلته :

فقال ابن مسعود :

— بل أنت الكذاب الآثم ياعدو الله ، قد والله قتلته .

وقال ابن مسعود إنه قطع رقبته ، فبعث عليه السلام رجالا يلتمسونه فى القتلى وقال :

— إن خفى عليكم انظروا إلى أثر جرح فى ركبته ، فانى ازدحمت يوما أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان وكنت أسن منه يسيرا ، فدفعته فوقع على ركبته فجحش على إحديهما جحشا لم يزل أثره به .

فغدوا يطلبونه فوجدوا ذلك الأثر فعادوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقالوا :

— أبشر يانبي الله بقتل عدو الله أبي جهل .

فقال — صلى الله عليه وسلم — وقد ترقرقت في عينيه الدموع :

— الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام .

وخر ساجدا شكرا لله .

وراح علي يقول :

— اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأتني ضربته ، وأضربه فاتقاني بيده اليسرى فأبانها السيف فكأني أنظر إلى وميض خاتم في شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته فرأيت به الردع (الزعفران) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

وجاء المجذر إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعتذر عن قتل أبي البختري بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح يوم أن نقض صحيفة قريش الجائرة وقال : « لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح » ، فجعل يقص على النبي عليه السلام ما كان بينه وبين أبي البختري ثم قال :

— والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به فأبي إلا القتال ، فقاتلته فقتلته .

وبان الأسى في وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد كان من صفاته الوفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .

وغدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتفقد القتلى فوقف على مصرع ابني عفراء فقال :

فـدع عـنك التذكـر كـل يـوم
ورد حـرارة الصدر الكئـيب
وخبـر بالـذى لا عـيب فيـه
بصدق غيـر أخبـار الكـذوب
بمـا صنـع المليك غـداة بـدر
لنـا فـى المشركيـن مـن الـنصيب
غـداة كـأن جمعهـم حـراء[1]
بـدت أركانـه جنـح الغـروب
فلاقيناهـم منـا بجمـع
كـأسد الغـاب مـرْدان وشيب
أمـام محمـد قـد وازروه
على الأعـداء فـى لفـح الحـروب
بأيديهـم صوارم مرهفـات
وكل مخرب خاظى[2] الكعوب[3]
بنـو الأوس الغطـارف وازرتهـا
بنـو النجـار فـى الديـن الصليـب[4]

---

(١) حراء : جبل بمكة .
(٢) الخاظى : المكتنز .
(٣) الكعوب : عقد القناة .
(٤) الصليب : الشديد .

فغادرنـــا أبـــا جهـــل صريعـــا
وعتبـــة قـــد تركنـــا بالجبـــوب
وشيبـــة قـــد تركنـــا فـــى رجـــال
ذوى حسب إذا نسبـــوا حسيب
يناديهـــم رسول الله لمـــا
قذفناهـــم كبـــاكب[1] فـــى القلـــيب
ألـــم تجـــدوا كلامـــى كـــان حقـــا
وأمـــر الله يأخـــذ بالقلـــوب ؟
فمـــا نطقـــوا ولـــو نطقـــوا لقالـــوا :
صدقت وكـــنت ذا رأى مصيب

(١) كباكب : جماعات .

٧

نزل رسول الله — ﷺ — الأثيل فعرض عليه الأسرى ، فالتق بصره بيصر عمه العباس فإذا بمشاعر رقيقة تكتنفه وقد التمعت عيناه سرورا أن أطاعه المسلمون فى العباس فلم يقتلوه . وقد اكتفى بأسره أبو اليسر كعب بن عمرو وكان موقفه عليه السلام من العباس يثير كثيرا من التساؤل ، فلماذا أعلن على الملأ الأمان لعمه ؟ ألوشائج القربى التى بينهما ؟ إذا كان ذلك هو السبب فلماذا لم يعلن الأمان لعقيل بن أبى طالب وسادات بنى هاشم وبنى المطلب ؟ أولو كان أبو لهب فى صفوف قريش أكان محمد عليه السلام يؤمن حياته ؟ إن أبا لهب قد بعث عوضا عنه العاص بن هشام بن المغيرة وكان قد قامره فى عشر من الإبل فغلبه ثم فى عشر فقمره ثم فى عشر فقمره إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شىء ، ثم قامره على أن من غلب يصبح عبدا لصاحبه ، وقد غلب العاص وصار لأبى لهب عبدا . فلما خرج المشركون إلى بدر كان من لم يخرج أخرج بديلا . وكان أبو لهب عليلا فأخرجه وقعد على أنه إن عاد إليه أعتقه ، فقتله على بن أبى طالب . لو كان أبو لهب أسيرا لأمر عليه السلام بضرب عنقه ، فلماذا أحيا العباس ؟ أكان العباس مسلما وقد كتم إسلامه ليكون عينا لرسول الله عليه السلام فى مكة ؟ ليكون قلم مخابراته ؟! أكتم عليه السلام سر عمه وتحمل فى صبر ما رفرف على بعض الشفاه من إنكار لذلك التحيز الظاهر فى سبيل

على الفرس ، وهاهو ذا وعد الله قد تحقق ، ولكن أين أمية بن خلف ليسوق إلى أبي بكر الرهان ؟ إنه غارق فى خزيه تحت التراب والحجارة . وأين أبو جهل والمكذبون ؟ إنهم فى القليب نهاية كل الطغاة المتعجرفين ، وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون .

وبقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة أيام ببدر ، وفى الليل أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة القليب وجعل يقول :

— يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام ، بئس عشيرة النبي كنتم . كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس . هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فانى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا .

فقال عمر :

— يا رسول الله كيف تكلم أجسادا قد جيفوا ؟

— ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وسار المؤمنون يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى ، وراح حسان بن ثابت شاعر الرسول يقول :

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخط الوحى(١) فى الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جون(٢) ... من الوسمى(٣) منهمر سكوب

(١) الوحى : الكتابة .
(٢) الجون : الأبيض والاسود
(٣) الوسمى : مطر الخريف .

كذا وكذا .

ـــ يا مصعب فليجعلنى كأحد أصحابى ، إن قتلوا قتلت وإن منّ عليهم منّ على .

ـــ إنك كنت تعذب أصحابه .

ـــ أما والله لو أسرتك قريش ما قتلت أبدا وأنا حى .

قال مصعب :

ـــ والله إنى لأراك صادقا ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام العهود .

وقال عليه السلام :

ـــ اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

ـــ أسيرى يا رسول الله !

ـــ اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا على فاضرب عنقه .

فقام على فضرب عنقه ، وإذا بخوف قاتل يدثر الأسرى جميعا ، وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى المقدم فقد رماه سعد بن أبى وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم حتى وجده قد أخذه مالك ابن الدخشم وهو ممسك بناصيته فقال سعد :

ـــ أسيرى رميته .

فقال مالك :

ـــ أسيرى أخذته .

فأتيا رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ فأخذه منهما جميعا ، ورآه عمر فقال لرسول الله ﷺ :

— انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .

فقال رسول الله ﷺ :

— لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، ولعله يقوم مقاما لا تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر رسول الله عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبرا ، فلم يعد سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .

ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبى معيط نظرة ارتجفت لها فرائصه . إن عقبة قد داس على رقبة رسول الله وهو ساجد فى الحرم حتى كادت عيناه الشريفتان أن تخرجا من محاجرهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ : لأقتلنك إن التقيت بك خارج مكة . وها هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما فى الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار ، ولكن رسول الله — ﷺ — قد شغل عنه بالنظر إلى أبى العاص بن الربيع زوج ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله — ﷺ — بالأثيل قبل الغروب فنزل به ، وبات به وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ، فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :

— من رجل يحفظنا الليلة ؟

فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— أبو سبع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثتكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :

— وأين صاحباك ؟

— يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى محبوسون فى الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لا تنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنين العباس[1] من وثاقه .

---

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبي رافع قال : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فينا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل زوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم إسلامه .

أكتم عليه السلام سر عمه وتحمل فى صبر ما رفرف على بعض الشفاه من إنكار لذلك التحيز الظاهر فى سبيل نصرة قضية الإسلام؟

إن سر العباس بن عبد المطلب كان فى صدرين لاثالث لهما : صدر رسول الله عليه السلام ، وصدر عمه الذى خرج معه ليقف إلى جواره فى بيعة العقبة وليأخذ على الأنصار المواثيق لحماية رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

ورأى عقيل بن أبى طالب أحب أبناء عمه إلى قلب الشيخ فى الأسر ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وقد أسره جبار بن صخر ، فتجاوزهما ثم نظر إلى النضر بن الحارث وقد أسره المقداد فاذا فى مثل لمح البصر يتذكر رسول الله عليه السلام كل ما كان يفعل النضر من هزء به وبآيات الله . فيا طالما قال : « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هـذا إن هذا إلا أساطير الأولين(١) » . « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء(٢) » ، وارتجف النضر واقشعر جلده من نظرته عليه السلام فقال لرجل إلى جنبه :

— محمد والله قاتلى ! لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت !

فقال الذى إلى جانبه :

— والله ما هذا منك إلا رعب .

فقال النضر لمصعب بن عمير :

— يا مصعب أنت أقرب من ها هنا بى رحما ، كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى ، هو والله قاتلى إن لم تفعل .

(١) الأنفال من آيتى ٣١ — ٣٢

قال مصعب :

— إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا وكذا وتقول فى نبيه كذا وكذا .

— يامصعب فليجعلنى كأحد أصحابى ، إن قتلوا قتلت وإن منّ عليهم منّ على .

— إنك كنت تعذب أصحابه .

— أما والله لو أسرتك قريش ما قتلت أبدا وأنا حى .

قال مصعب :

— والله إنى لأراك صادقا ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام العهود .

وقال عليه السلام :

— اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

— أسيرى يارسول الله !

— اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم ياعلى فاضرب عنقه .

فقام على فضرب عنقه ، وإذا بخوف قاتل يدثر الأسرى جميعا ، وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى القدم فقد رماه سعد بن أبى وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم حتى وجده قد أخذه مالك بن الدخشم وهو ممسك بناصيته فقال سعد :

— أسيرى رميته .

فقال مالك :

— أسيرى أخذته .

فأتيا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذه منهما جميعا ، ورآه عمر فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

— انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا . ولعله يقوم مقاما لا تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر رسول الله عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبرا ، فلم يعد سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .

ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبي معيط نظرة ارتجفت لها فرائصه . إن عقبة قد داس على رقبة رسول الله وهو ساجد فى الحرم حتى كادت عيناه الشريفتان أن تخرجا من محاجرهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ : لأقتلنك إن التقيت بك خارج مكة . وها هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما فى الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار . ولكن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد شغل عنه بالنظر إلى أبى العاص بن الربيع زوج ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالأثيل قبل الغروب فنزل به . وبات به وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ، فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :

— من رجل يحفظنا الليلة ؟

فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— أبو سبع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثتكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :

— وأين صاحباك ؟

— يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى محبوسون فى الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لاتنام يارسول الله ؟

— سمعت أنين العباس (١) من وثاقه .

---

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبى رافع قال : كنت غلاما للعباس

فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى كان آخر الليل فارتحل ذكوان . وأقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالأسرى حتى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح أن يضرب عنق عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس . فجعل عقبة يقول :

— يا ويلى علام أقتل يامعشر قريش من بين من ها هنا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— لعداوتك لله ولرسوله .

— يا محمد منّك أفضل ، فاجعلنى كرجل من قومى إن قتلتهم قتلتنى وإن مننت عليهم مننت على . وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم ، يامحمد من للصبية ؟

— النار ، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه .

فقدمه عاصم فضرب عنقه ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم :

— بئس الرجل كنت ، والله ما علمت كافرا بالله وبرسوله وبكتابه مؤذيا لنبيه ، فأحمد الله الذى قتلك وأقر عينى منك.

وكان منادى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد نادى :

— من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له .

وكانت الإبل التى أصابوها يوم بدر مائة وخمسين بعيرا ، وكان مع قريش أدم كثير حملوه للتجارة وأصاب المسلمون من

بن عبد المطلب ، وكان الاسلام قد فشا فينا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل زوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم اسلامه .

ورفرفت على شفاهها الذابلة آخر ما يرفرف على شفاه المؤمنين ، راحت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأحست أم كلثوم أن قلبها قد بلغ حنجرتها وأن دموعها التى جرت على خديها إنما هى نزيف كبدها ، وإن روحها ستفر منها قبل أن تشهد نهاية رقية .

واضطربت فاطمة الزهراء من الرأس إلى المقدم وزاغت نظراتها وقد اعتصر الحزن قلبها ، وإذا بفاجعتها فى أمها الطاهرة وسيدة نساء قريش تتجدد ، فهى تحس أن خديجة قد عادت لتموت مرة أخرى مع رقية الحبيبة ، فاحتلت صفحة رأسها صورة خديجة وهى مسجاة فى فراشها جثة هامدة ، وملأت عينيها من أختها الممدودة فى فراشها وقد علتها صفرة الموت وحشرجت روحها فى صدرها . وجعلت فاطمة تتلفت دون أن تدرى إلى من تفزع من تلك الآلام الهائلة التى تلهب وجدانها بسياطها ، إنها فوق طاقتها وتعجز عن احتمالها ، فغدت تنادى فى همس :

— أبتاه ! أبتاه !

ومن غير رسول الله عليه السلام يمسح آلام بناته ؟ ولكن رسول الله — ﷺ — قد خرج فى سبيل الله ليعلى كلمة الله ، وقد ترك ابنته مريضة فما أقعده مرضها عن الخروج ، فما بعث إلا ليعلم الناس أن للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ولم يرقأ لأم أيمن دمع وراحت ذكريات أيام مكة تنثال على رأسها ، فرأت يوم ولدت رقية كأنما كان ذلك بالأمس القريب . أحقا قد مرت الأيام سريعا وحان وقت الفراق ؟ إنها لا تريد أن تصدق أنه

الموت وإن كانت الأنفاس قد اضطربت وشخص البصر والتفت الساق بالساق .

أتكون رقية أول من تلحق بأم المؤمنين من بناتها ؟ واستشعرت أم أيمن كأن روح خديجة ترفرف في المكان فسرت في جسمها قشعريرة ولفها خوف وشرقت بدموعها ثم أجهشت بالبكاء . فإذا بالعيون التي فاضت بالعبرات تلتفت إليها كأنما تسألها أن تكف عن العويل حتى لا تؤذي الحبيبة التي كانت تلفظ آخر الأنفاس .

وجاء أسامة بن زيد إلى أمه عابس الوجه فقد فطن إلى ما يقاسيه الذين التفوا حول فراش رقية من أحزان ، وإذا بدموعه تنهمر فيخفي وجهه في صدر أمه ليكتم في جوفه ما يتردد فيه من عويل وصراخ .

وذاقت رقية الموت فارتمى عثمان عليها يبكي وينتحب ، وصرخت أم كلثوم صرخة مفزوعة مزقت السكون الذي ران طويلا على المكان ، وأطلقت فاطمة صيحات انخلع لها قلوب الجيران فهرعوا يسألون فقيل لهم :

— ماتت رقية بنت رسول الله .

وجاء رجال الأنصار وقد لاح في وجوههم الأسى ، وزاد في حزنهم أن رقية تموت دون أن يراها رسول الله عليه السلام . وخفت النسوة إلى حيث كانت الجثة الطاهرة ليشاركن أم كلثوم وفاطمة الزهراء في المصاب .

وجهزت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف النعش عثمان بن عفان وهو واله حزين ومن حوله الرجال محزونين وأسامة بن زيد يجهش بالبكاء . حتى إذا بلغت الجنازة البقيع ، قبرت رقية بنت

رسول الله عليه السلام وقد انهمرت الدموع من عيون الرجال .

وسووا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — التراب ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله — ﷺ — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا إليه يلقون إليه أسماعهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدّم من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاءا يوم الأحد في الضحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة .

— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن الأسود وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا والصبيان يشتدون معه ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بنى أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على زاحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البخترى وزمعة بن

الأسود وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :

ـــ ما جاء زيد إلا فلاً .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسامة ابن زيد :

ـــ قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبي لبانة بن عبد المنذر :

ـــ قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عِلية أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب وقد جاء فلاً .

فقال أبو لبانة :

ـــ كذّب الله قولك .

وقالت يهود :

ـــ ما جاء زيد إلا فلا .

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

ـــ يا أبت ! أحق ما تقول ؟

ـــ إى والله حقا يابني .

فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المنافق فقال :

ـــ أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لنقدمنك إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا قدم فليضربن عنقك .

ـــ إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه .

٩

وسار رسول الله — ﷺ — والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا وملل وسهيل بن عمرو مع مالك بن الدخشم الذى أسره ، قال سهيل لمالك :

— خلِّ سبيلى للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

— إنى أحتشم فاستأخر عنى .

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبى — ﷺ — فى طلبه بنفسه وقال :

— من وجده فليقتله .

وراحوا ينقبون عنه على ظهور الجياد والإبل ، وانطلق ﷺ فى أثره فوجده أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فإذا بسهيل لا يتحرك من مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه ﷺ ثم عاد به فأمر به فربطت يداه إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار فكانوا إذا تعشوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع فى يده الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به ختنه رسول الله ﷺ ، فهو

يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق المتين ، فما لقنهم محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها فى بضعة شهور ، واستمر أبو العاص ينقاد إلى عقله السليم المبرأ عن الأهواء فإذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذى يدعو إلى مكـارم الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ بمكة يزعم أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :

ـــ فارق صاحبتك بنت محمد ونحن نزوجك أى امرأة شئت من قريش .

ـــ لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنه محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى وهو أسير بن يدى ختنه أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويجل أباها ، وإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا ذكره يثنى عليه خيرا ، وإن حقيقة ما يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى لبصيرته . ولولا خشيته من أن يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبى لهب فى ذلك الوقت ، فقد مشوا إليه فقالوا :

ـــ طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة شئت من قريش .

ـــ إن أنتم زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق رقية أجمل النساء

وجهزت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف النعش عثمان بن عفان وهو واله حزين ومن حوله الرجال محزونين وأسامة بن زيد يجهش بالبكاء . حتى إذا بلغت الجنازة البقيع ، قبرت رقية بنت رسول الله عليه السلام وقد انهمرت الدموع من عيون الرجال .

وسووا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — التراب ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا إليه يلقون إليه أسماعهم .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدم من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاءا يوم الأحد فى الضحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة .

— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن الأسود وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا والصبيان يشتدون معه ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بنى أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن الأسود وأمية بن خلف ، وأسر سهيل ابن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .

فجعل الناس لايصدقون زيد بن حارثة ويقولون :

— ما جاء زيد إلا فلا .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد :

— قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبى لبانة بن عبد المنذر :

— قد تفرق أصحابكم تفرقا لايجتمعون معه أبدا ، وقد قتل علية أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدرى ما يقول من الرعب وقد جاء فلا .

فقال أبو لبانة :

— كذب الله قولك .

وقالت يهود :

— ما جاء زيد إلا فلا .

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

— يا أبت ! أحق ما تقول ؟

— إى والله حقا يا بنى .

فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المنافق فقال :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لنقدمنك إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا قدم فليضربن عنقك .

— إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه .

٩

وسار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا وملل وسهيل بن عمرو مع مالك بن الدخشم الذى أسره ، قال سهيل لمالك :

– خلِّ سبيلى للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

– إنى أحتشم فاستأخر عنى .

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبى – صلى الله عليه وسلم – فى طلبه بنفسه وقال :

– من وجده فليقتله .

وراحوا ينقبون عنه على ظهور الجياد والإبل ، وانطلق عليه السلام فى أثره فوجده أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فاذا بسهيل لايتحرك من مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه عليه السلام ثم عاد به فأمر به فربطت يداه إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار

فكانوا إذا تعشوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع فى يده الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون . فجعل أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به ختنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق المتين ، فما لقنهم محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها فى بضعة شهور ، واستمر أبو العاص ينقاد إلى عقله السليم المبرأ عن الأهواء فاذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذى يدعو إلى مكارم الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكة يزعم أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :

— فارق صاحبتك بنت محمد ونحن نزوجك أى امرأة شئت من قريش .

— لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنة محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى وهو أسير بن يدى ختنه أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويجل أباها ، وإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا ذكره يثنى عليه خيرا ، وإن حقيقة ما يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى لبصيرته . ولولا خشيته من أن يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبى لهب فى ذلك الوقت ، فقد مشوا إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة شئت من قريش .

— إن أنتم زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق رقية أجمل النساء خُلقا وخَلقا ، ولم يقف فى عداوته عند هذا بل تطوع ليبصق فى وجه ختنه ، وكانت ثمرة ذلك البغى أن أكل السبع ذلك السفيه ابن حمالة الحطب .

وقفز به خياله إلى مكة إلى حيث غادر زينب ليحارب أباها مع سفهاء قومه ، إنه وهو فى غمرة حماسه لم يفكر فى مشاعر زوجه ، أما الآن وهو أسير منطلق مع الأسرى إلى مدينة الرسول فهو يحس حقيقة عواطفها ، إنها ممزقة بينه وبين أبيها قد استولى عليها خوف قاتل أن تفجع فى أحدهما ، فهو على ثقة من أنها تحبه ، ولا شك فى عظم حبها لأبيها ، وعما قليل سيفد الناعى إلى مكة لينعى ساداتها وستتلقف زوجه الأنباء فى قلق ولهفة، لا تدرى أتفرح أم تحزن !

لك الله يازينب ، ليت أحدا يحمل إليك أن أبا العاص بن الربيع زوجك الحبيب بين يدى أب رقيق ورسول كريم ليسكن قلق نفسك وينقشع خوف قلبك وينزل بك أمن وسكينة إلى حين .

ولقى الناس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالروحاء يهنئونه بفتح الله عليه . فلقيه وجوه الخزرج ، فقال سلمة بن سلامة بن وقش :

— ما الذى تهنئونه ؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعا !

فتبسم النبى — صلى الله عليه وآله — فقال :

— يا بن أخى أولئك الملأ ، لو رأيتهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها ! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم !

فقال سلمة :

— أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، إنك يا رسول الله لم تزل عنى معرضا فقد كنا بالروحاء فى بدأتنا .

فقال — صلى الله عليه وسلم :

— أما ما قلت للأعرابى : وقعت على ناقتك فهى حبلى منك ففحشت وقلت ما لا علم لك به . وأما ما قلت فى القوم فانك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدها .

فاعتذر سلمة فقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معذرته ، ليصبح سلمة من علية أصحابه .

ولقى رسول الله عليه السلام أسيد بن حُضير فقال :

— يارسول الله الحمد لله الذى ظفرك وأقر عينك . والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدوا ولكنى ظننت أنها العير ، ولو ظننت أنه عدو لما تخلفت .

— صدقت .

وراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتقدم على ناقته القصواء وقد ربطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه وقرن إلى الناقة ، وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا فكانت أنيابه بادية

فلذلك قالوا : ذو الأنياب . ورأى أسامة بن زيد رسول الله عليه السلام فهرع إليه وهو فرحان قد نسي ما أحس من ألم لموت رقية ، ولقيه رسول الله وهو متهلل الأسارير فأجلسه بين يديه .

ونظر الناس إلى سُهيل بن عمرو وقالوا :

— يارسول الله أبو يزيد !

— نعم ، هذا الذى كان يطعم الخبز بمكة .

وجعل أسامة ينظر إلى سهيل ثم قال :

— يا رسول الله هذا الذى كان يطعم الثريد بمكة .

— هذا أبو يزيد الذى يطعم الطعام ، ولكنه سعى فى إطفاء نور الله فأمكن الله منه .

وراح مالك بن الدخشم الذى أسره يقول :

أسرت سُهيلاً فلا أبتغى
به غيره من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى
سهيلاً فتاها إذا تظلَّم
ضربت بذى الشفر (١) حتى انثنى
وأكرهت نفسى على ذى العلم

وبين الوجوه المستبشرة بنصر الله تقدم وجه باسر لا يستطيع أن يخفى آلام نفسه وإن جاهد ليطوى أحزانه بين ضلوعه حتى يهنئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر الله . إنه عثمان بن عفان صاحب الفجيعتين : فجيعته فى رقية الزوجة الوفية وفجيعته

(١) ذو الشفر : كناية عن السيف

فى نسبه من رسول الله عليه السلام ، إنه يحاول أن يبعد عينيه المحمرتين من أثر البكاء عن عينى رسول الله عليه السلام ، ولكن محمدا عليه السلام قرأ فى وجهه الجميل قصة المأساة . فطن فى لمحة أن رقية الحبيبة قد مضت ولن تذوق الموت بعدها أبدا ، فخفق قلبه حزنا وفاضت رقته فاذا بالدموع تطفر من عينيه ، وإذا به يفتح ذراعيه ليضم عثمان إلى صدره ، وإذا بقلبي الرجلين ينزان حزنا وأسى على الغالية .

ونظر أبو بكر وعمر وعلى والرجال العائدون من المعركة مزهوين بالنصر إلى نبيهم الكريم وقد تحركت إنسانيته لوفاة ابنته فبللت العبرات أرواحهم قبل أن تترقرق فى مآقيهم ، وزاد فى أساهم إشفاقهم على رسول الله عليه السلام فقد كانوا يعلمون مقدار إرهاف حسه ورقة مشاعره .

وسار عليه السلام مطأطئ الرأس إلى الدار يحس ألم الثكل ، فلما دخل على أم كلثوم وفاطمة الزهراء ألفى نسوة من الأنصار عندهما ، فما إن وقعت عينا فاطمة على أبيها حتى انخرطت فى البكاء فمشى إليها والحزن يعتصره وغدا يمسح دموعها بطرف ثوبه ، وأجهشت أم كلثوم بالعويل ، ولم يستطع عثمان أن يكبح جماح عواطفه فراح يسح الدموع فى صمت ويحاول أن ينأى بوجهه عن رسول الله عليه السلام .

وأحس النسوة بالدموع تجرى إلى العيون فانسحبن من الغرفة وأجهشن بالبكاء ، فلما صك العويل أذنى عمر بن الخطاب أشفق على حبيبه رسول الله عليه السلام فراح يزجرهن فى عنف ،

فخرج الأب الثاكل إليه وقال :

— مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى البقيع ومن حوله أصحابه الذين شاركوه فرحة النصر ليشاركوه أحزان الفراق ؛ ووقف حليف الأحزان على قبر ابنته مطرق الرأس يدعو لها بالغفران .

إنه يحس بالألم من أعماق وجوده وهو يستشعر فى نفس الوقت بقدرة الله . إنه مهما انتصر فهذه هى نهاية الحياة الدنيا فلاينبغى أن يدير أى نصر دنيوى رأس رسول الله عليه السلام .. إنه بعث رحمة للعالمين فكتب عليه أن يذوق ألم الأحزان ليتدفق قلبه بالحنان على البشر ؛ فما من نصر أحرزه إلا قد قرن بالألم ، فطريق الرسالة ليس بالطريق الذى تحفه الورود والرياحين ، وإنما هو طريق شائك وعر تكتنفه المشاق والآلام والأحزان . وما أكثر الآلام والأحزان فى حياة رسـول الله — صلى الله عليه وسلم :

كانت سودة بنت زمعة زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ اللذين كانا أول من أصابا أبا جهل ، وكانت أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة زاد الركب هناك ، وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ابن عمة الرسول عليه السلام : برة بنت عبد المطلب . وبينا النساء فى المناحة جاء من قال :

– هؤلاء الأسرى قد أتى بهم :

فخرجت سودة بنت زمعة إلى بيتها ورسول الله عليه السلام فيه ، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يداه إلى عنقه فى ناحية البيت ، فما ملكت نفسها حين رأته مجموعة يداه إلى عنقه أن قالت :

– أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا متم كراما ؟

فما راعها إلا قول رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – من البيت :

– ياسودة ، أعلى الله وعلى رسوله ؟

– يا نبى الله والذى بعثك بالحق إنى ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت ؟

ودخل خالد بن هشام بن المغيرة وأمية بن أبى حذيفة منزل أم سلمة وأم سلمة فى المناحة ، فلما قيل : « أتى بالأسرى »

خرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم فهم أسرى رسول الله عليه السلام ، وجعلوا يتحدثون إليها وهي صامتة ، ثم رأت أن تخرج تستشير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيهم ، فانطلقت حتى وجدته في بيت عائشة فقالت :

— يا رسول الله إن بني عمي طلبوا أن يدخل بهم على فأضيفهم وأدهن رءوسهم وألم من شعثهم ، ولم أحب أن أفعل شيئا من ذلك حتى أستأمرك .

— لست أكره شيئا من ذلك ، فافعلي من هذا ما بدا لك .

وجاء زوجها أبو سلمة المخزومي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغفر الله من كلامه في أبي جهل . فلنه كان عند النبي — صلى الله عليه وسلم — ساعة أن جاءه عبد الله بن مسعود يقول إنه قتل أبا جهل ، فقد وجد أبو سلمة في نفسه فهو مخزومي وأبو جهل سيد بني مخزوم وأقبل على ابن مسعود يقول :

— أنت قتلته ؟

— نعم ، الله قتله !

— أنت وليت قتله ؟

— نعم .

— لو شاء لجعلك في كمه !

— فقد والله قتلته وجردته .

— فما علامته ؟

— شامة سوداء ببطن فخذه اليمنى .

فعرفَ أبو سلمة النعت فقال :

— أجردته ولم يجرد قرشي غيره !

— إنه والله لم يكن فى قريش ولا فى حلفائها أحد أعدى لله ولا لرسوله منه ، وما أعتذر من شئ صنعته به .

إن أبا سلمة يحس وهو بين يدى رسول الله أنه وجد فى نفسه لكافر ناصب رسول الله عليه السلام العداء ، فندم على ما كان منه فقال :

— اللهم إنى قد أنجزت ما وعدتنى فتمم على نعمتك .

وشرد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يفكر فى المعركة فاذا به يرى عمه حمزة وهو معلم بريشة نعام فى صدره يصول ويجول فى صفوف قريش ويفعل بهم الأفاعيل ، وابن عمه وربيبه وحبيبه على بن أبى طالب ينقض على أعداء الله انقضاض الليوث . لقد كان حمزة قبل بدر أسد الله وأسد رسوله وكانت قريش ترتجف منه فرقا . أما بعد بدر فقد اشتهر أمر على بعد أن أطاح برءوس سادات بيوت الشرف فى قريش . لقد بذر على بشجاعته بذور الحقد فى نفوس القرشيين وباتت بينه وبين أشراف مكة ثارات لن يقوى الدين على إخماد نارها أو نزع أنيابها .

ورأى حارثة بن سراقة عند الحوض وقد أصابه سهم غرب (لا يدرى راميه) . ورأى نفسه عليه السلام وهو قادم إلى المدينة بعد أن أيده الله بنصره . فجاءت أم حارثة إليه فقالت :

— يا رسول الله قد عرفت موضع حارثة فى قلبى فأردت أن أبكى عليه ، ثم قلت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله — صلى

الله عليه وسلم — عنه ، فإن كان فى الجنة لم أبكه ، وإن كان فى النار بكيته فأعولته !

— هبلت : أجنة واحدة ! إنها جنان كثيرة . والذى نفسى بيده إنه لفى الفردوس الأعلى .

— فلا أبكى عليه أبدا .

وحبس الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فطمعوا فى الحياة فقالوا :

— لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا .

فبعثوا إلى أبى بكر فأتاهم فقالوا :

— يا أبا بكر إن فينا الآباء والأبناء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب : كلم صاحبك فليمن علينا ويفادنا .

— نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا .

ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قالوا :

— وابعثوا إلى عمر بن الخطاب فانه من قد علمتم ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكف عنكم !

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل ما قالوا لأبى بكر فقال :

— لا آلوكم شرا .

ثم انصرف إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فوجد أبا بكر عنده والناس حوله وأبو بكر يلينه ويغشاه ويقول :

— يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، وقومك فيهم الآباء والأبناء

والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب . فامنن عليهم من الله عليك أو فادهم قوة للمسلمين فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك .

ثم قام فتنحى ناحية ، وسكت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلم يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر فقال :

— يا رسول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك . اضرب رقابهم فهم رءوس الكفر وأئمة الضلال يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم الشرك .

يا رسول الله أطعني فيما أشير به عليك فاني لا آلوك نصحا ، قدم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك ، وقدم عقيلا إلى أخيه يضرب عنقه ، وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله .

فسكت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يجبه . وعاد أبو بكر إلى مقعده الأول فقال :

— بأبي أنت وأمي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ! فامنن عليهم أوفادهم ، هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم وأن يهديهم الله خير من أن يهلكهم .

فسكت رسول الله عنه فلم يرد عليه شيئا وقام ناحية ، فقام عمر فجلس مجلسه فقال :

— يا رسول الله ما تنتظر بهم ! اضرب أعناقهم يوطئ الله بهم الإسلام ويذل أهل الشرك . هم أعداء الله كذبوك وأخرجوك . يارسول الله اشف صدور المؤمنين ، لو قدروا منا على مثل هذا ما أقالونا أبدا .

وقام سعد بن معاذ يقول :

— اقتل ولا تأخذ الفداء .

ثم قام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدخل داره فمكث فيها ساعة ، ثم خرج والناس يخوضون فى شأنهم يقول بعضهم :

— القول ما قال أبو بكر .

وآخرون يقولون :

— القول ما قال عمر :

فلما خرج عليه السلام قال للناس :

— ما تقولون فى صاحبيكم هذين ؟ دعوهما فان لهما مثلا ، مثل أبى بكر فى الملائكة كمثل ميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده ، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل ، أوقد له قومه النار فطرحوه فيها فما زاد على أن قال : « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون(١) » وقال : « فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم(٢) » ، وكعيسى إذ يقول : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم(٣) » .

ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله ، ومثله فى الأنبياء كمثل نوح كان أشد على قومه من الحجارة ، إذ يقول : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا(٤) » . فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعا ، ومثل موسى إذ يقول : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد

(١) الانبياء ٦٧ (٢) ابراهيم ٣٦ (٣) المائدة ١١٨ (٤) نوح ٢٦

على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم(١) » . وإن بكم عيلة ، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق .

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حيث حبس الأسرى فألقى نظرة عليهم ثم قال :

— لو كان مطعم بن عدى حيا لوهبت له هؤلاء النتنى (٢) .

إنه عليه السلام لا ينسى أن قومه أخرجوه وقد خيروه بين القتل والخروج ، فخرج إلى الطائف ولقى من ثقيف أذى كبيرا فعاد هو وزيد بن حارثة إلى غار حراء ، وبعث إلى أشراف مكة ليدخلوه فى جوارهم فأبوا جميعا إلا مطعم بن عدى فقد أجاره وبسط حمايته عليه ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل فى دينه . إنه عليه السلام لا ينسى هذه اليد وإنه فى هذه اللحظة التى تملك فيها رقاب من أبوا أن يجيروه يتذكر فضل المطعم ويقول لو كان حيا لجازاه بأن يهب له أسارى بدر ، خلق عظيم لا ينسى فى لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله عليه السلام إلى عمه العباس وقال له :

— افد نفسك يا عباس وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل ابن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو فانه ذو مال .

فقال العباس :

— يا رسول الله إنى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى .

إن العباس ليقر باسلامه ولكن ذلك سيفسد أهمية دوره فى

---

(٣) يونس ٨٨

(٤) يعنى أسارى بدر وواحدهم نتن ، وسماهم نتنى لكفرهم .

بقائه بمكة ، أن يظل رئيس قلم مخابرات المسلمين ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— الله أعلم باسلامك إن يكن ما قلت حقا فان الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافتد نفسك .

وقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر ، فقال العباس :

— يا رسول الله احبسها لى فى فدائى .

— ذاك شيء أعطانا الله منك .

ووقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أبى عزة عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحى وكان شاعرا ، فقال له أبوعزة :

— إن لى خمس بنات ليس لهن شيء ، فتصدق بى عليهن يامحمد أعطيك موثقا ألا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدا .

فأرسله رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فانطلق أبوعزة إلى مكة مسرورا وهو لايصدق أنه قد نجا من الأسر دون فداء !

ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أبا وداعة السهمى أسيرا فقال لأصحابه :

— إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ،وكأنكم به قد جاء فى طلب فداء أبيه .

وأنزل الله على رسوله : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم(١) » .

(١) الانفال ٦٧ — ٦٨

١١

كانت قريش قد أرسلت الفرات بن حيان العجلى حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها وما قد حشدت ، فخالف أبا سفيان فى الطريق ، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر ولزم الفرات بن حيان المحجة فوافى المشركين بالجحفة ، فسمع كلام أبي جهل وهو يقول :

— لا نرجع .

فقال :

— ما بأنفسهم عن نفسه رغبة ! وإن الذى يرجع بعد أن رأى ثأره من كثب لضعيف !

فمضى مع قريش فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بدر جراحات كثيرة وهرب على قدميه وهو يقول :

— ما رأيت كاليوم أمرا أنكد ! إن ابن الحنظلية لغير مبارك الأمر .

وخرج بنو عدى من النفير حتى كانوا بثنية لفت ، فلما كان فى السحر عدلوا فى الساحل منصرفين إلى قلة ، فصادفهم أبو سفيان فقال :

— كيف رجعتم يا بنى عدى ! ولا فى العير ولا النفير !

— أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع فرجع من رجع ومضى من مضى .

وقال الأخنس بن شريق وكان حليفا لبنى زهرة لما أرسل أبو سفيان أن ترجع :

- يا بنى زهرة قد نجى الله عيركم وخلص أموالكم ونجى صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعوه ماله ، وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم ، فان يك نبيا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا يلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خبثها لى ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير ما يهمكم ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعنى أبا جهل - فانه مهلك قومه ، سريع فى فسادهم .

فأطاعته بنو زهرة وكان فيهم مطاعا ، وكانوا يتيمنون به فقالوا :

- فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟

- نسير مع القوم فاذا أمسيت سقطت عن بعيرى فيقولون نحل الأخنس . فاذا أصبحوا فقالوا سيروا فقولوا لا نفارق صاحبنا حتى نعلم أحى هو أم ميت فندفنه ، فاذا مضوا رجعنا إلى مكة .

ورجع بنو زهرة وسار الآخرون إلى مصارعهم أو ليقعوا أسرى فى أيدى المسلمين أو ليولوا الأدبار فزعين ، وقد هام قباث بن أشيم الكنانى على وجهه فلم يسلك المحاج خوفا من الطلب حتى لقيه رجل من قومه فقال :

- ما وراءك ؟

فقال قباث :

- لا شئ ، قتلنا وأسرنا وانهزمنا ، فهل عندك من حملان ؟

فحمله على بعير وزوده زادا حتى لقى الطريق بالجحفة ، ثم مضى وهو ينظر إلى الحيسمان بن حابس الخزاعى فعرف أنه تقدم ينعى قريشا بمكة ، فلو أراد أن يسبقه لسبقه ، فتنكب عنه حتى يسبقه ببعض النهار فقد كان يكره أن يحمل إلى قريش أنباء قتلاها .

وراح حكيم بن حزام يعدو على ظهر الجمل وعبيد الله وعبد الرحمن ابنا العوام يعدوان خلفه وهو يخشى طلب القوم ، حتى إذا كان بمر الظهران تذكر ما كان من قريش فى خروجها وما قال أبو جهل من افتراء فقال :

— والله لقد رأيت ها هنا أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شؤم ابن الحنظلية .

ما كانت قريش لتنتصر يوم بدر فقد دب فيها التخاذل وكراهية الحرب وحب الرجوع وخوف اللقاء وخفوق الهمم وفتور العزائم ورجوع بنى زهرة وبنى عدى من الطريق واختلاف آرائهم فى القتال ، فقد مشت إليهم الهزيمة قبل أن يلقوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصحبه الأبرار ، وحق عليهم الانكسار لو كانوا قد لقوا قوما جبناء ، فكيف وإنما لقوا رسول الله عليه السلام المؤيد من السماء والأوس والخزرج وهم أشجع العرب ، وحمزة أسد الله وعلى بن أبى طالب ربيب رسول الله ، وجماعة من المهاجرين أمجاد ، صفوة قال الله فيهم : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا

مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين (١) » .

وقدم الحيسمان الخزاعى فانطلق كالعاصفة إلى الحرم فاذا بصفوان بن أمية وسادات قريش فى الحجر ، فقام الحسيمان فقال :

— قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابنا الحجاج وأبو البخترى وزمعة بن الأسود .

فقال صفوان بن أمية بن خلف :

— لا يعقل هذا شيئا مما يتكلم به ! سلوه عنى .

فقالوا له :

— صفوان بن أمية لك به علم ؟

— نعم هو ذاك فى الحجر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين ، ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما مقرونين فى الحبال .

وقدم قباث بن أشيم وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم وهم يلعنون الخزاعى ويقولون :

— ما جاءنا بخير .

ونزلت أنباء بدر على الكافرين نزول الصاعقة ، وتهللت بالفرح وجوه المسلمين . وكان ممن سرهم ما جاءهم من الخبر أم الفضل وأبا رافع غلام العباس وكان رجلا ضعيفا وكان يعمل القداح ينحتها فى حجرة زمزم وعنده أم الفضل جالسة ، فأقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس إلى طرف الحجرة ، فكان

---

(١) الانفال ٦٥ — ٦٦

ظهره إلى ظهر أبي رافع . فبينا هو جالس إذ قال للناس :

— هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم .

كان أبو سفيان بن الحارث أكثر بني هاشم شبها بابن عمه رسول الله عليه السلام ، وكانا لايفترقان قبل أن يفرق بينهما الإسلام ، وكان أبو سفيان شاعر بني هاشم وقد هجا ابن عمه ولم يكتف بذلك بل خرج مع قريش إلى بدر ليقاتل رفيق الصبا والشباب وقرين الروح وشرف عدنان ، فلما انهزمت قريش ولى الأدبار وانقلب إلى أهله يحمل العار .

وقال أبو لهب لأبي سفيان بن الحارث :

— هلم يابن أخي فعندك والله الخبر .

فجلس إليه والناس قيام حوله فقال :

— يا بن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟

— لا شيء . والله إن هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا فقتلونا كيف شاءوا وأسرونا كيف شاءوا . وايم الله مع ذلك ما لمت الناس . لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض . لا والله ما تبقي شيئا ولا يقوم لها شيء .

فقال أبو رافع في فرح :

— تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته على رأسه فشجته شجة منكرة وقالت :

— استضعفته إذ غاب سيده .

فقام موليا ذليلا .

ورجعت قريش إلى مكة فهمّ الرجال والنساء ببكاء قتلاهم فقام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال :

— يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة ولا يندبهم شاعر وأظهروا الجلد والعزاء ، فانكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلكم ذلك من عداوة محمد وأصحابه ، مع أن محمدا إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلكم تدركون ثأركم فالدهن والنساء على حرام حتى أغزو محمدا

ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة فقلن :

— ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟

فقالت والنار تشوى كبدها :

— خلانى (منعنى) أن أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا وبنساء بنى الخزرج ، لا والله حتى أثأر محمدا وأصحابه ، والدهن على حرام إن دخل رأسى حتى نغزو محمدا ! والله لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبى لبكيت ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة .

وانقضت سبع ليال على ضرب أم الفضل أبا لهب بعمود على رأسه فرماه الله بالعدسة وهى قرحة قاتلة كالطاعون فقتلته . ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا وما يدفنانه حتى أنتن فى بيته ، فقد كانت قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون حتى قال لهما رجل من قريش :

— ويحكما ! ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تغيبانه !

— إنا نخشى هذه القرحة .

— فانطلقا وأنا معكما .

فما غسلوه بل قذفوا عليه الماء من بعيد خشية أن يمسوه ، وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كتان هناك وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروه .

وأنهت أم الفضل حياة طاغية ليصلى نارا ذات لهب ، ولكنما كان قتل أبي لهب نهاية مظفرة لغزوة بدر في قلب الحرم .

راح المطلب بن أبي وداعة السهمي يتجهز للخروج إلى المدينة ليفدى أباه ، فجاءته قريش فقالت :

ــ لا تعجل فانا نخاف أن تفسد علينا فى أسارانا ويرى محمد تهالكنا فيغلى علينا الفدية ، فإن كنت تجد فإن كل قومك لا يجدون من السعة ما تجد .

ــ لا أخرج حتى تخرجوا .

وكان أناس غيره يرون الخروج لفداء الأعزة لولا الحياء ، فزينب بنت محمد عليه السلام تحب أن تبعث إلى أبيها من يفتدى منه الزوج العزيز أبا العاص بن الربيع . فهى وإن كانت قد تهللت بالفرح لما جاءت الأخبار بنصر الله لرسوله وللمسلمين فقد كدر سرورها وقوع أبى العاص أسيرا ذليلا فى أيدى الأنصار . وما كان يخفف من لوعتها إلا معرفتها بتقدير أبيها لزوج ابنته الأمين .

لقد انحدرت الدموع من مآقيها مرتين . مرة لما جاءها الخبر بوقوع زوجها أسيرا ومرة أخرى لما جاءها الناعى ينعى إليها موت أختها رقية . كانت عبراتها الأولى مشوبة بأمل اللقاء ، أما عبراتها الثانية فقد امتزجت بحرقة الفراق ونكأت جروح أحزانها وذكرتها بأيام الاضطهاد وفرار أختها بدينها إلى الحبشة ثم هجرتها مع زوجها عثمان إلى المدينة . وأعادت إلى سطح ذهنها أيام أن ماتت أمها خديجة أم المؤمنين وهى تشتهى أن ترى رقية قبل أن

تموت ، ولكن روحها الطاهرة قد لحقت بربها دون أن ترى رقية الحبيبة ، فغمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسى ونزل بقلبه أقدح ما يتحمله بشر من الأحزان .

وودت زينب لو تستطيع أن تخرج لتفدى زوجها وتعزى أباها الثاكل الذى فجع فى ابنته وهو فى قمة انتصاره ، ولكنها كانت عاجزة عن الخروج وحدها فهى بين كفار قد ملئت قلوبهم حقدا على أبيها . فلو همت بالخروج لكانت هدفا لسهام متعطشة إلى دماء محمد عليه السلام وإلى أهل بيته وكل من معه من المهاجرين والأنصار .

ولم يستطع المطلب بن أبى وداعة أن يصبر على فداء أبيه فخادع قريش حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة ليفتدى أباه . وصدق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حينما قال لأصحابه : « إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، وكأنكم به قد جاء فى طلب فداء أبيه » .

وافتدى المطلب أباه بأربعة آلاف درهم وكان أول أسير افتدى ، ثم عاد به إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح فلامته قريش فى ذلك فقال :

— ما كنت لأترك أبى أسيرا فى أيدى القوم وأنتم مضجعون .

فقال أبو سفيان بن حرب :

— إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه وهو مفسد عليكم ، إنى والله غير مفتد عمرو بن أبى سفيان ولو مكث سنة أو يرسله

محمد ، والله ما أنا بأعوزكم ولكنى أكره أن أدخل عليكم ما يشق عليكم ولكن يكون عمرو كأسوتكم .

وسكت الناس وإن كانت قلوبهم تهفو إلى الأسرى ، ثم انتشر فى مكة همس يقول ما يمنع أبا سفيان من فداء ابنه غير بخله فقد اشتهر عنه ذلك البخل بين قومه . وعجز الناس عن احتمال بقاء الآباء والأبناء والأعمام والأخوال والأحبة أذلاء فى الأسر ، فشد الرحال إلى المدينة فى فداء الأسرى أربعة عشر رجلا : من بنى عبد شمس الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وعمرو بن الربيع أخو أبى العاص بن الربيع ، ومن بنى نوفل بن عبد مناف جُبير ابن مطعم ، ومن بنى عبد الدار بن قصى طلحة بن أبى طلحة ، ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى عثمان بن أبى حُبيش ، ومن بنى مخزوم عبد الله بن أبى ربيعة وخالد بن الوليد وهشام ابن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبى جهل ، ومن بنى جمح أُبَىّ بن خلف وعمير بن وهب ، ومن بنى سهم عمرو بن قيس ، ومن بنى مالك بن حِسْل مكرز ابن حفص بن الأحنف .

وقدم الرجال إلى المدينة فى فداء أهلهم وعشائرهم . فانطلقوا إلى مسجد رسول الله عليه السلام فإذا برسول الله قائم يصلى يرتل : « والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار

جهنم دعا . هـــذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون »(١) .

وجعل جبير بن مطعم يصغي إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإذا بالآيات تنزل إلى قلبه لكأنها نور أضاء بصيرته ، إنه ليرتجف من آيات الوعيد ويشرق بالأمل لما تمس فؤاده آيات التبشير وبهم في عالم الملكوت . وقد ألقى سمعه وهو شهيد . إن قوة طاغية في أغوار نفسه تهيب به أن ينهض ليشهد على الملأ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ولكنه يقاوم هذه الرغبة وإن دخل الإسلام في قلبه .

وغدا الوليد بن عقبة يساوم سعد بن أبي وقاص في أسيره الحارث بن أبي وحرة بن أبي عمرو بن أمية حتى افتداه بأربعة آلاف . وراح جبير بن مطعم يفتدى عدى بن الخيار وعثمان بن عبد شمس وأبا ثور . وجلس إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قام للصلاة أو جلس لتلاوة القرآن ، فقد أصبح جبير ابن مطعم أسير سحر ما يرتل محمد عليه السلام .

وصار أبو عزيز بن عمير بالقرعة لمحرز بن نضلة ، فجاء أخوه مصعب بن عمير وقال لمحرز :

— اشدد يدك به ، فإن له أما بمكة كثيرة المال .

فقال له أبو عزيز :

---

(١) الطور ١ — ١٦

— هذه وصاتك بي يا أخي ؟ !

فقال مصعب :

— إنه أخي دونك .

وكانت أمه قد سألت : ما أغلى ما تفادى به قريش؟ فقيل لها : أربعة آلاف . فبعثت فيه أمه أربعة آلاف .

وقدم طلحة بن أبي طلحة في فداء الأسود بن عامر بن الحارث بن السبّاق ، أسره حمزة بن عبد المطلب ، وقدم عثمان ابن أبي حبيش في فداء السائب بن أبي حبيش وسالم بن شماخ وعثمان ابن الحويرث وقد فدى كل رجل منهم بأربعة آلاف .

وقدم خالد بن الوليد وهشام بن الوليد في فداء أخيهما الوليد ابن الوليد بن المغيرة . فتمنع عبد الله بن جحش حتى يدفعا فيه أربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يقول :

— ثلاثة آلاف .

فقال خالد لهشام :

— إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبي فيه إلا كذا وكذا لفعلت .

وافتدياه بأربعة آلاف . ثم خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة فأفلت فأتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقيل :

— ألا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ !

— كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومي .

وقدم عكرمة بن أبي جهل في فداء خالد بن الأعلم العقيلي حليف بني مخزوم . وهو الذي يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وكان أول المنهزمين ، أسره الحباب بن المنذر بن الجموح .

وقدم عمير بن وهب فى فداء ابنه وهب ، وكان عمير هو القائل يوم بدر لما قالت له قريش « احرز لنا أصحاب محمد » . ما وجدت شيئا ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

إنه كان جالسا فى مكة مع صفوان بن أمية ، فذكر أصحابه القليب ومصابهم فقال صفوان :

— والله إن فى العيش بعدهم خير .

قال له عمير :

— صدقت والله ، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لى قبلهم علة : ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال :

— على دينك وأنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شئ ويعجز عنهم .

— فاكتم شأنى وشأنك .

— أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فسحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ،

إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

ــ هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر . وهو الذى حرش بيننا وحزّرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال :

ــ يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .

ــ فأدخله على .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبّبه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

ــ ادخلوا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال :

ــ أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

ــ أنعموا صباحا .

فقال صلى الله عليه وسلم :

ــ أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

ــ أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

ــ فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه.

— فما بال السيف فى عنقك ؟

— قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟ !

— اصدقنى ما الذى جئت له ؟

— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام وساقنى هذا المساق .

ثم شهد على الملأ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

وقال عمر بن الخطاب :

— خنزير كان أحب إلى منه حين طلع ، وهو الساعة أحب إلى من بعض ولدى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القــرآن وأطلقوا له أسيره .

ثم قال عمير :

— يا رسول الله إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل . وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله — صلى الله عليه وسلم — وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

فأذن له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلحق بمكة .

وقدم عمرو بن الربيع فى فداء أخيه العاص بن الربيع ، فقدم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما بعثت به ابنته زينب فى فداء زوجها فإذا به مال وقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها . فترقرق الدمع فى عينى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورق لها رقة شديدة . إنها ذكرته بالطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين التى صدقته لما كذبه الناس ، وواسته لما عزت المواساة ، وكانت له وزير صدق على الدوام ، إنه ليذكرها أبدا فى أفراحه وأتراحه ، فى انتصاراته وأحزانه ، كلما فكر فى رقية التى ذهبت أو زينب التى فرق بينه وبينها بقاؤها فى كنف زوج مشرك ماكان بقادر على أن يفرق بينهما أو فى أم كلثوم وفاطمة الزهراء اللتين ذاقتا مرارة اليتم وهما فى عمر الزهور .

وقال عليه السلام لمن عنده فى صوت متهدج ،

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

— نعم يا رسول الله .

كان صفوان بن أمية يجلس فى الحرم ويقول :

ـ أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر .

وراح صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة ويقول :

ـ هل حدث بالمدينة من حدث ؟

كان على ثقة من أن عمير بن وهب سيقتل رسول الله عليه السلام ، بل إن حقده كان يؤكد له أن الاغتيال قد وقع وأن كل قادم إلى مكة إنما ما جاء إلا ليحمل إليه البشرى التى ستشفى غليله ، فقدم رجل من المدينة فسأله صفوان عن عمير فقال :

ـ أسلم .

فأحس صفوان كأن سهام الأرض قد صوبت إلى فؤاده فمزقته ، كان النبأ أقسى على قلبه من نذير الشؤم الذى جاء بخبر قتلى بدر ، إن ذلك الرجل أنحس من الحيسمان(١) ، وغدا صفوان يلعن عمير بن وهب ولعنه الناس وقالوا :

ـ صبأ عمير .

وحلف صفوان ألا يكلمه أبدا ولا ينفعه وطرح عياله ، وقدم عمير فنزل فى أهله ولم يأت صفوان وأظهر الإسلام ،

---

(١) رجل كانوا يتشاءمون منه . والحسوم : الشؤم

فبلغ صفوان فقال :

— قد عرفت حين لم يبدأ فى قبل منزله ، وقد كان رجل أخبرنى أنه ارتكس : لا أكلمه من رأسى أبدا ولا أنفعه ولا عياله بنافعة أبدا :

فوقع عليه عمير وهو فى الحجر فقال :

— يا أبا وهب :

فأعرض صفوان عنه فقال عمير :

— أنت سيد من ساداتنا : أرأيت الذى كنا عليه من عبادة حجر والذبح له ! أهذا دين ؟ ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله :

فلم يجبه صفوان بكلمة : وغدا عمير يدعو الناس إلى الإسلام .

وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة ففرح الناس بعودة من كان من الرجال المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وطاف بالبيت سبعا . وانتظر سادات قريش الذين كانوا فى نواديهم أن يأتى إليهم ليقص عليهم كيف أطلقه محمد بغير فداء ؛ ولكن أبا العاص كان فى شوق إلى زينب بنت محمد ، إلى الزوجة التى بعثت فى فدائه بأعز ما تملك قلادة غالية كانت خديجة أدخلتها بها عليه ليلة زفافها عليه . إنه طوال الرحلة قد شغل بوجه محمد وقد رق لها رقة شديدة . إنه كان يعرف أن ختنه كان يحب خالته خديجة بكل عواطفه ، ولكنه ما كان يتصور أن يبلغ حبه إياها حد أن يذوب رقة لمجرد رؤية قلادتهـا وأن تغيم عيناه بالدموع للذكرى !

وراح أبو العاص بن الربيع يغذ السير ليلحق بزوجه وهو ملهوف فى صدره شوق وفى فؤاده هوى وعلى لسانه كلمات ، وهم بأن يترنم بشعر جزل يعبر عن جيشان العواطف فى وجدانه إلا أنه أفاق إلى نفسه وتذكر ما وعد به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقطب جبينه وقد هاجت فى عين ذاته الأحزان : فهو لا يستطيع أن ينكث وعده وإلا لطخ أمانته التى اشتهر بها بين قومه بالأوحال .

إنه وعد أليم موجع لقلبه سيقوض البيت الحانى الذى عجزت عواصف الأحداث من قبل عن أن تزعزع أركانه ؛ وكان قد بلغ الدار فما إن وقعت عينا زينب عليه حتى جرت إليه ودموع الفرح تغسل الوجه الذى انبسطت أساريره : وصار فى لحظة مرآة الفـؤاد الذى فاض فى لحظة بشتى المشاعر والانفعالات .

وغاب الزوجان عن الوجود ولم يحسا إلا بنفسيهما وبعواطفهما الثائرة المشبوبة . وبينا هما فى غمرة السعادة إذا بترجيع صوت رسول الله عليه السلام يرن فى أعماق أبى العاص بن الربيع : فيبعد أبو العاص زوجه عن صدره ويقول لها :

— تأهبى يا زينب لتلحقى بأبيك .

ونظرت إليه زينب فى دهش وهى لا تكاد تفقه شيئا . فقال لها وقد أطرق بنظره إلى الأرض :

— فرق بينى وبينك الإسلام .

إن أبا العاص وعد رسول الله — صلى الله عليه وآله — ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، وكان يعلم قسوة ذلك الوعد

علي قلبه ، ولكنه وهو يفضي إلى زينب الحبيبة بما شرط عليه أبوها يحس أن قلبه يتمزق وأنه يتناثر أشلاء ، ويا طالما ترنم الركبان بشعره الذى يتشبب فيه بزينب بنت محمد .

وغدت زينب تجاهد عواطفها وهى تتجهز للخروج ، إنها قالت صادقة بلسانها ووجدانها : سمعا وطاعة لله ولرسول الله ، ولكن عواطفها خذلتها ولم تكن لها عليها سلطان . فدمعها لا يرقأ وقلبها دائم الخفقان للحبيب الذى كان نعم الزوج على الدوام .

وبينا هى تتجهز للحوق بأبيها لقيتها هند بنت عتبة من قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر ، فقالت :

— ألم يبلغنى يا بنت محمد أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟

فقالت زينب فى حذر :

— ما أردت ذلك .

— أى بنت عم لا تفعلى . إن كانت لك حاجة فى متاع أو فيما يرفق بك فى سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك . فلا تضطنى (تستحى) منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال .

وأحست زينب أنها صادقة وما قالت حينئذ إلا لتفعل ، ولكن خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك . وتجهزت حتى فرغت من جهازها فحملها أخو بعلها وهو كنانة بن الربيع .

قدم لها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهارا يقود بعيرها وهى فى هودج لها ، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء وتلاومت فى ذلك وأشفقت أن تخرج

ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فخرجوا فى طلبها سراعا حتى أدركوها بذى طوى . فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى ونافع ابن عبد القيس الفهرى ، فروعها هبار بالرمح وهى فى الهودج وكانت حاملا . فغدت تنزف دما .

وبرك حموها كنانة بن الربيع ونثل كنانته بين يديه ؛ ثم أخذ منها سهما فوضعه فى كبد قوسه وقال :

— أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهما .

فرجع الناس عنه . وجاء أبو سفيان بن حرب فى جلة من قريش فقال :

— أيها الرجل اكفف عنا نبلك حتى نكلمك .

فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

— إنك لم تحسن ولم تصب . خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية جهارا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد أبيها فيظن الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا وهن . ولعمرى ما لنا فى حبسها من أبيها من حاجة وما فيها من ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس بردها سلها سلا خفيا فألحقها بأبيها .

وراحت زينب تنظر إلى الدم الذى ينزف منها فى خوف ، فرأى كنانة بن الربيع أن يعود بها استجابة لتوسل أبى سفيان

وحفظا لحياة زوجة أخيه :

ولقيت هند بنت عتبة الذين خرجوا إلى زينب حين انصرافهم فقالت لهم :

أفى السلم أعيارٌ(١) جفـاءً وغلظة
وفى الحرب أشباه النساء العوارك(٢).

وفيما كانت زينب فى طريق عودتها طرحت ما فى بطنها وأصابها ضعف ، فلما بلغت دار أبى العاص هرع من فيه إليها يحملونها وهى غارقة فى دمائها .

وصبت اللعنات على رأس هبار بن الأسود ، وراح أبو العاص بن الربيع يمسح بحنانه آلام زوجه التى فرق الإسلام بينه وبينها . ومرت ليالى وأيام ولا حديث لمكة إلا حديث بدر والأسرى الذين عادوا بفداء أو بلا فداء . وغدا العباس يجلس فى نوادى قومه يحدث عما لقوا من الأنصار فى المدينة ، ولم يسأله أحد : لم فرق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين ابنته زينب وبين زوجها الحبيب أبى العاص ولم يفرق بينه وبين أم الفضل مع أن الحالة واحدة ؟ ! فأبو العاص مشرك وزينب مؤمنة . وكذلك الحال مع العباس وأم الفضل . ولو دار ذلك السؤال فى خلدهم لكشفوا أمر العباس ولأيقنوا أنه على دين ابن أخيه وأنه ما بقى بينهم يتظاهر بالشرك إلا ليكون عينا عليهم

(١) اعيار : حمر الوحش. والعيار من الرجال : الذى يخلى نفسه وهواها.
(٢) النساء العوارك : الحوائض

لرسول الله عليه السلام يحمل إليه أنباءهم .

وجاء أناس إلى أبي سفيان وهو جالس مع العباس في الحجر وقالوا :

— ألا تفتدى ابنك عمرا ؟

فقال أبو سفيان وقد فقد حلمه :

— أيجمع على دمي ومالي ؟ قتلوا حنظلة وأفتدي عمرا .

وطفق قلب أبي سفيان يقطر حقدا على علي بن أبي طالب فهو قاتل حنظلة وآسر عمرو . وكانت أمه ابنة عقبة بن أبي معيط لا تنفك تسأله أن يفتدى ابنه ويكفيها حزنها على قتل أبيها . ولكنه كان يطلب منها أن تصبر كما صبرت هند بنت عتبة ترصدا ليوم الثأر الأكبر .

واستردت زينب بعض قواها وهدأ الصوت عنها فحملها كنانة بن الربيع على بعيرها وهي تذرف الدمع على فراق أبي العاص ، وخرج بها ليلا وهو يسلها سلا خفيا وقد أرهفت حواسه خشية الطلب .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما خليَّ سبيل أبي العاص بعث بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال لهما :

— كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها .

وخرج الرجلان ينتظران حتى أقبل كنانة بن الربيع يقود هودج زينب حتى أسلمها إلى الرجلين وهو يقول :

عجبت لهبار وأوباش قومه
يريدون إخفارى (١) بنت محمد
ولست أبالى ما حييت عديدهم
وما استجمعت قبضا يدى بالمهند

وانطلق الرجلان حتى قدما بزينب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فلما تقدم خافق القلب لاستقبال ابنته العزيزة العائدة من دار الشرك إلى دار الإسلام إذا به يجدها تنزف دما فأصابه كدر ، وسمع ما كان من هبار بن الأسود بن عبد المطلب من قسوة على زينب فأهدر دمه .

وقال عبد الله بن رواحة فيما كان من أمر زينب :

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره
لزينب فيهم من عقوق ومأثم
وإخراجها لم يخز فيها محمد
على ناقط (٢) بيننا عطر منشم (٣)
وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم (٤)
ومن حربنا فى رغم أنف ومندم

---

(١) اخفارى : نقض عهدى .

(٢) ناقط : معترك الحرب .

(٢) كناية عن شدة الحرب ومنشم بائعة طيب تعطر بطيبها فتيان لم ذهبوا للحرب فلم يرجعوا .

(٣) ضمضم بن عمرو الغفارى ارسله أبو سفيان ليخبر اهل مكة بمحاولة تعرض الرسول واصحابه لتجارة قريش .

(غزوة بدر)

قرنا ابنه عمرا ومولى يمينه
بذى حلق جلد الصلاصل محكم
فاقسمت لا تنفك منا كتائب
سراة خميس(١) فى لهام(٢) مسوَّم
نزوع قريش الكفر حتّى نُعلّها(٣)
بخاطمة فوق الأنوف بميسم
تنزلهم أكناف نجيد ونخلة
وإن يُتهموا بالخيل والرَّجل نُتهم
يدَ الدهر حتّى لا يعوج سربنا
ونلحقهم آثار عاد وجرهم(٤)
ويندم قوم لم يطيعوا محمدا
على أمرهم ولات حين تندُّم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته
لئن أنت لم تخلص سجودا وتُسلم
فأبشر بخزى فى الحياة معجَّل
وسربال قار خالدا فى جهنم

---

(١) الخميس: الجيش الكبير.
(٢) اللهام: الجيش العظيم.
(٣) العلل: الشرب مرة بعد مرة.
(٤) عاد وجرهم: من القبائل التى بادت.

وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : أبو حكيمة زمعة وعقيل والحارث بن زمعة ، فكان يحب أن يبكى على قتلاه فتأبى عليه قريش ذلك ، وكان يقول لغلامه وقد ذهب بصره !

ــ ويلك ! احمل معى خمرا واسلك بى الفج الذى سلكه أبو حكيمة .

فيأتى به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس فيسقيه الخمر حتى ينتشى ثم يبكى على أبى حكيمة وإخوته ، ثم يحثى التراب على رأسه ويقول لغلامه :

ــ ويحك ! اكتم على . فانى أكره أن تعلم بى قريش ، إنى أراها لم تجمع البكاء على قتلاها .

وبينا هو يبكى على قتلاه سرا إذ سمع نائحة من الليل فقال لغلامه :

ــ انظر هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة فإن جوفى قد احترق .

فذهب الغلام ورجع إليه فقال :

ــ إنما هى امرأة تبكى على بعير ها قد أضلته .

فقال الأسود :

أتبكى أن يضل لهـــا بعـــير ويمنعهـــا من النوم السهـــود

فلا تبكي على بكر (١) ولـكن ... على بكر تصاغرت الخـــدود
فبكـّى إن بكيت على عقيــل ... وبكـّى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى (٢) جميعا ... فما لأبي حكيمة من نديـــد
على بدر سراة بني هُصيص ... ومخزوم ورهط أبي الوليد
ألا قد ســاد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يســودوا

وبلغ نوفل بن معاوية الدِّيلي وهو في أهله ، وكان قد شهد بدرا ، أن قريشا بكت على قتلاها فقدم مكة فقال :

— يا معشر قريش لقد خفت أحلامكم وسفه رأيكم وأطعتم نساءكم ، أمثل قتلاكم يبكى عليهم ! هم أجل من البكاء مع أن ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم إلا أن تدركوا ثأركم من عدوكم .

فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه فقال :

— يا أبا معاوية غُلبت ، والله ما ناحت امرأة من بني عبد شمس على قتيل إلى اليوم ولا بكاهم شاعر إلا نهيته حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه وإني لأنا الموتور الثائر ، قتل ابني حنظلة وسادة أهل هذا الوادي ، أصبح هذا الوادي مقشعرا لفقدهم .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما قدم إلى المدينة وقدم بعده الأسرى قال قوم من المنافقين :

— ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة .

وقالت يهود فيما بينها :

---

(١) لا تسمى : لا تسامي .

(٢) البكر : الفتى من الابل .

— هو الذى نجد نعته فى كتبنا ، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت .

واتفقوا فيما بينهم أن ينتظروا وقعة ثانية ليروا إن كانت له أو عليه قبل أن يصلوا إلى قرار .

وقال كعب بن الأشرف :

— بطن الأرض خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحزم والأمن قد أصيبوا .

وخرج إلى مكة فنزل على أبى وداعة بن ضبيرة وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين فقال :

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر يستهل ويدمع
قتلت سراة الناس حول حياضه لا تبعدوا إن الملوك تصرع
ويقول أقوام أذل بعزهم إن ابن أشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسيخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ما نال مثل الهالكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يسعى على الحسب القديم الأروع

فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه وأظهروا المراثى وجعل الصبيان والجوارى ينشدونها بمكة . فناحت بها قريش على قتلاها شهرا . ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح . وجز النساء شعورهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين

أظهرهم فينوحون حولها ، وخرجن إلى السكك وضربن الستور فى الأزقة فخرجن إليها ينحن .

وكانت هند بنت عتبة قد عزمت على ألا تبكى أباها عتبة وأخاها الوليد وعمها شيبة قبل أن تثأر من قاتليهم ، ولكن الفجيعة كانت فوق طاقتها فما أن بكت قريش قتلاها حتى راحت هند تذرف الدمع السخين وتنشد :

لله عينا من رأى   هلكا كهلك رجاليه
يا رُبَّ باك لى غدا   فى النائيات وباكيه
كم غادروا يوم القليب غداة تلك الداعيه(١)
من كل غيث فى السنين   إذا الكواكب خاويه
قد كنت أحذر ما أرى   فاليوم حق حِذاريه
يا رُبَّ قائله غدا   يا ويح أم معاويه

وتأهبت قريش للخروج فى الموسم وقد بلغ هند تسويم (٢) الخنساء هودجها ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية فقالت :

— أنا أعظم من الخنساء .

وأمرت بهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت :

— اقرنوا جملى بجمل الخنساء .

ففعلوا ، فلما دنت منها قالت لها الخنساء :

— من أنت يا أخية ؟

— أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغنى أنك

---

(١) الداعية : الصراخ .   (٢) تمييز .

تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم ؟

— بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابنى عمرو ، وبم تعاظمينهم أنت ؟

— بأبى عتبة بن ربيعة وعمى شيبة بن ربيعة وأخى الوليد .

— أو سواء هم عندك ؟

ثم أنشدت الخنساء تقول :

أبكى أبى عمرا بعين غــزيرة   قليل إذا نام الخلى هجــودها

إلى أن قالت :

فذلك يا هنــد الرزية فاعلمى   ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكى عميد الأبطحين(١) كليهما   وحاميهما من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى   وشيبة الحامى الذمار وليدهــا
أولئك آل المجد من آل غالب   وفى العز منها حين ينمى عديدها

وكان الرواة ينقلون المراثى إلى المدينة ، فبينا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالسا مع أصحابه إذ جاء رجل ينشد ما قالت قتيلة بنت الحارث فى رثاء أخيها النضر بن الحارث الذى ضرب على بن أبى طالب عنقه بالأثيل :

يا راكبا إن الأثيــل مظنــة   من صبح خامسة وأنت موفق
بلّغ به ميتا فإن تحيـــــــة   ما إن تزال بها الركائب تخفق
منى إليــه وعبرة مســفوحة   جادت لمائحها وأخرى تخنق

(١) الابطحان : مثنى ابطح وهو المسيل الواسع به دقائق الحصى ويقال : قريش البطاح لانهم ينزلون بين أخشبى مكة .

فليسمعن النضر إن ناديتـــه إن كان يسمع ميت أو ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشـه لله أرحـام هنـاك تمزق
صبرا يقاد إلى المدينـة راغما رسف المقيَّد وهو غان موثق
أمحمد ولأنت نجـل نجيبـة فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربمـا منَّ الفتى وهو المغيظُ المحنق
والنضر أقرب من قتلت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق

وراح النبي — صلى الله عليه وسلم — يصغى إلى شعر بنت خالته فى رثاء ابن خالته وقد غشيته رقة وقال :

— لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله ما قتلته .

صلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره دعا لقوم من قريش فقال :

— اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين .

ومس الدعاء أذني عمر بن الخطاب فأهاج ذكرياته : فانه اتعد لما أرادوا الهجرة من المدينة هو وعياش بن أبي ربيعة وهشام ابن العاص بن وائل السهمي وقالوا :

— أينا لم يصبح عند سرف فقد حبس فليمض صاحباه .

وكانت سرف على ستة أميال من مكة ، فأصبح هو وعياش ابن أبي ربيعة عندها وحبس عنهما هشام ، فانطلقا فلما قدما المدينة نزلا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما عليه المدينة ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكة : فكلماه وقالا :

— إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ؛ ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرق عياش لأمه أسماء بنت مخربة . ورأى عمر ميله لتصديقهم فقال له :

— يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك

فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

— أبر قسم أمى ولى هناك مال فآخذه .

— والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ؛ فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما ، فلما دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ثم قالا :

— يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يقاسي عياش بن ربيعة المخزومى من تعذيب دون أن يملك إلا الإشفاق عليه ؛ فما كان له حول ولا قوة فى مكة .

وراح عمر يتذكر ما كانوا يقولون فيمن افتتنوا : ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة أنزل الله تعالى فيهم : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون »(١) .

ورأى عمر بن الخطاب نفسه وهو يكتبها بيده فى صحيفة

---

(١) الزمر ٥٣ — ٥٥

ويبعث بها إلى هشام بن العاص . ورن فى أغواره صوت هشام وهو يحدثه : « فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى أصعِّد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت : اللهم فهمنيها . فألقى الله تعالى فى قلبى أنها أنزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا . فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بالمدينة » .

وأفاق عمر من ذكرياته على صوت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول :

— من لى بعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ؟

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة :

— أنا لك يا رسول الله بهما .

فخرج إلى مكة فلما بلغها وجد أن أباه الوليد بن المغيرة قد أصابه سهم رجل من بنى كعب بن عمرو من خزاعة . فدخل عليه وقد حضرته الوفاة . ووجد أبا سفيان عنده قبل أن يخرج لذى مجاز والحوار دائر بينهما . يقول الوليد لصاحبه :

— أخشى ألا تعبد العزى بعد موتى .

فيقول له أبو سفيان :

— أعبدت لحياتك حتى لا تعبد لموتك ؟

— الآن أموت وأنا قرير العين .

وخرج أبو سفيان والتفت الوليد إلى بنيه : هشام بن الوليد وخالد بن الوليد والوليد بن الوليد فقال لهم :

— أى بنى أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا فيهن : دمى فى خزاعة

فلا تطلنّه (تهدرنه) ؛ والله إنى لأعلم أنهم منه بُرآء ولكنى أخشى أن تسبوا به بعد اليوم ! وربای فى ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه ، وعقرى (ديتى) عند أبى أزيهر الدوسى فلا يفوتنكم به .

وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتا ثم أمسكها عنه .

وهلك الوليد بن المغيرة فوثبت بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم دية الوليد وقالوا :

— إنما قتله سهم صاحبكم .

فأبت عليهم خزاعة ذلك حتى تقاولوا أشعارا وغلظ بينهم الأمر . فقال عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى :

إنى زعيم أن تسيروا فتهربوا وأن تتركوا الظهران تعوى ثعالبه
وأن تتركوا باء بجزعة أطرقا وأن تسألوا : أى الأراك(١) أطايبه
فانا أناس لا تطل دماؤنا ولا يتعالى صاعدا من نحاربه

فأجابه الجون بن أبى الجون أحد بنى كعب بن عمرو الخزاعى فقال :

والله لا تؤتى الوليد ظلامة ولما تروا يوما تزول كواكبه
ويصرع منكم مسمن بعد مُسمن وتفتح بعد الموت قسرا مشاربه
إذا ما أكلتم خبزكم وخزيركم(٢) فكلكم باكى الوليد ونادبه

ثم إن الناس تراضوا وعرفوا أنما يخشى القوم السبة ، فعطتهم خزاعة بعض الدية وانصرفوا عن بعض ؛ فلما اصطلح القوم قال الجون بن أبى الجون :

(١) كانت الظهران والاراك منازل بنى كعب من خزاعة .
(٢) الخزير : الحساء من الدسم .

وقائلة لما اصطلحنا تعجبـا ... لما قد حملنا للوليد وقائـل
ألم تقسموا تؤتوا الوليد ظلامة ... ولما تروا يوما كثير البلابـل
فنحن خلطنا الحرب بالسلم فاستوت ... فأم هواه آمنا كلّ راحـل

ثم لم ينته الجون بن أبى الجون حتى افتخر بقتل الوليد وكان ذلك باطلا ، فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك السبة ، فقال الجون بن أبى الجون :

ألا زعم المغـيرة أن كعبـا ... بمكـة منهـم قـدر كثير
فلا تفخـر مغيرة أن تراهـا ... بها يمشي المعلهَّج والمهير (١)
بهـا آباؤنا وبهـا ولدنا ... كما أرسى بمثبتـه ثبـير (٢)
وما قال المغـيرة ذاك إلا ... ليعلم شـأننا أو يستثـير
فإن دم الوليـد يُطل إنـا ... نطـل دماء أنت بها خبـير
كسـاه الفاتك الميمون سهما ... زعافا وهو ممتلئ بهـير (٣)
فخـر ببطن قلة مسلحبًّا (٤) ... كأنه عند وجبتـه بعـير
سيكفينى مطال أبى هشـام ... صغار جعدة الأوبار خور (٥)

وكان أبو سفيان بسوق ذى المجاز فعدا هشام بن الوليد على أبى أزيهر فقتله بعقر الوليد الذى كان عنده لوصية أبيه إياه فى السوق ، وبلغ الخبر مكة فخرج يزيد بن أبى سفيان فجمع بنى عبد مناف ليثأر لأبى أزيهر فعاتكة بنت أبى أزيهر كانت عند أبى سفيان ،

---

(١) المعلهج : المطعون فى نسبه ، والمهير : الصحيح النسب .
(٢) ثبير : جبل بمكة
(٣) البهير : المنقطع النفس من الاعياء .
(٤) المسلحب : الممتد ، والوجبة : السقطة .
(٥) الخور : الغزار اللبن .

فحسب الناس أن أبا سفيان سيثير ها حربا بين بني أمية و بني مخزوم فقالوا :

ـ أخفر (١) أبو سفيان في صهره فهو ثائر به .

فلما سمع أبو سفيان بالذى صنع ابنه يزيد انحط سريعا إلى مكة وخشي أن يكون بين قريش حدث فى أبي أزيهر . فأتى ابنه وقد لبس عدة القتال وكان فى قومه من بنى عبد مناف ، فأخذ الرمح من يده ثم ضربه به على رأسه ضربة هده منها ثم قال له :

ـ قبحك الله ! أتريد أن تضرب قريشا بعضهم ببعض فى رجل من دوس . سنؤتيهم العَقل (الدية) إن قبلوه .

وكان دفع الدية إطفاء لنار الحرب التى كادت أن تنشب بين قبائل قريش . وكان المسلمون يرجون أن يشب لهيبها توهينا لعدوهم الألد ، فانبعث حسان بن ثابت يحرض فى دم أبي أزيهر ويعير أبا سفيان خُفرته وجُبنه فقال :

غدا أهل ضوجى (٢) ذى المجاز كليهما
وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو
ولم يمنع العير الضروط ذماره
وما منعت مخزاة والدها هند
كساها هشام بن الوليد ثيابه فأبلِ وأخلف مثلها جددا بعد
قضى وترا منه فأصبح ماجدا
وأصبحت رخوا ما تخب وما تعدو
فلو أن أشياخا ببدر تشاهدوا لبلّ نعالَ القوم معتبطٌ ورد (٣)

(١) الخفر : الغدر . (٢) ضوجى : جانب الوادى .

(٣) معتبط ورد : الدم العبيط (الطرى) .

فلما بلغ أبا سفيان قول حسان قال :

ـ يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض فى رجل من دوس ! بئس والله ما ظن .

وطال غياب الوليد بن الوليد بمكة فظن المسلمون بالمدينة أنه حبس ، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره دعا :

ـ اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد .

وراح الوليد بن الوليد ينقب عن محبس عياش بن أبى ربيعة حتى لقى امرأة تحمل طعاما فقال لها :

ـ أين تريدين يا أمة الله ؟

ـ أريد هذا المحبوس .

ففطن إلى أنها فى طريقها إلى عياش بن أبى ربيعة فتبعها حتى عرف موضعه وكان محبوسا فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليه ثم أخذ مروة (حجرا) فوضعها تحت قيده ثم ضرب القيد بسيفه فقطعه ، فكان يقال لسيفه : « ذو المروة » ثم حمله على بعيره وساق به فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت   وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم به على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة فتهللت بالبشر لوصولهما سالمين أسارير المسلمين .

وبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقى الحارث بن يزيد فتذكر فى لحظة ما كان من الحارث يوم أن جاء إليه أبو جهل والحارث

ابن هشام لما هاجر أول مرة ، لقد خدعاه وقالا له إن أمه قد حلفت لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يرجع إليها ، فرق لها وعاد معهما . أوثقه قومه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ، ثم أتاه الحارث بن زيد وقال :

— يا عياش ، لئن كان الذى كنت عليه هدى لقد تركت الهدى ، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها .

فغضب عياش من مقاله وقال :

— والله لا ألقاك خاليا إلا قتلتك .

وإنه ليلقاه خاليا الساعة فحمل عليه فقتله ، فقال الناس فى فزع :

— أى شيء صنعت ؟ إنه قد أسلم .

فرجع عياش إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— يا رسول الله كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت ، وإنى لم أشعر بإسلامه حين قتلته .

واطرق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وشق ذلك على عياش ، حتى نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما »(١) .

(١) النساء ٩٢

كانت صدور أهل مكة تغلى بالحقد للخزى الذى نالهم فى بدر ؛ وكان يزيد فى حنقهم آيات الله التى تصل إليهم من المدينة تسجل عليهم العار والاندحار وتخزهم وخزا أليما . وكان حكيم بن حزام يرتجف فرقا كلما رن فى أغواره قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون (١) » . فهو يتذكر المطعمين فى بدر وما حاق بهم فينزل به رعب شديد .

إن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قد قتل وإن كان محمد بن عبد الله قد قال لأصحابه : « من ظفر به منكم فليتركه لأيتام بنى نوفل » . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس كانا أول من ذاق الموت فى المعركة . وترك على بن أبى طالب زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ونوفل بن خويلد بن العدوية كأمس الدابر وأردى أبا جهل قتيلا ابنا عفراء ؛ وقتل أمية ابن خلف وابنا الحجاج نبيه ومنبه . فما أطعم أحد ببدر إلا قتل إلا هو لا يدرى ألحكمة قد نجاه الله أم أن القتل يتربص به !

(١) الانفال : ٣٦ ، ٣٧

إن جلده يقشعر من الخوف حتى بات يخشى الوحدة حتى لا تفترسه أفكاره فكان يفزع إلى نوادى قومه . وبينا كان جالسا مع أبى سفيان بن حرب وصفوان بن أمية ومن بقى من شيوخ قريش حتى قال قائل :

— إن ثأرنا بأرض الحبشة فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عنده من أتباع محمد فنقتلهم بمن قتل منا .

انهزموا فى المعركة واستأصل المسلمون وجوههم فلم يبحثوا إلا عن نصر رخيص يشفى غليل نفوسهم ، فأرسلوا عمرو بن العاص صديق النجاشى الحميم ، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى ليدفع إليهما من عنده من المسلمين .

وركب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة سفينة وقد حملا معهما هدايا عظيمة . وما إن أقلعت حتى راح الذين تنز أفئدتهم بالحقد على على بن أبى طالب لقتل آبائهم أو إخوتهم أو أزواجهم أو أبنائهم وما أكثرهم ! يمنون النفس بأن يدفع النجاشى إليهم جعفر بن أبى طالب ليقتلوه انتقاما لأهليهم الذين سفحت دماؤهم فى بدر .

إن عليا هناك فى المدينة قد ذاع صيته بعد أن جدل صناديد قريش ، وإن أسد الله حمزة فى حصن من المهاجرين والأنصار وقتلهما ليس أمرا ميسورا ، وإن كانت هند بنت عتبة قد قتلتهما مرارا فى خيالها ثأرا لأبيها وأخيها وعمها . فما دام الانتقام من هذين اللذين فعلا فى قريش الأفاعيل بعيد المنال فقتل جعفر ومن معه من المسلمين فيه كثير من العزاء .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدبعث رسولا إلى النجاشي يحمل إليه أنباء انتصار بدر ، فركب الرسول السفينة من ينبع وانطلق بها إلى الحبشة وهو يتلو الآيات التي نزلت فى الأنفال وفى بدر ، فيسبقه خياله فيرى نفسه بين جعفر بن أبى طالب والذين معه من المسلمين وهم يصغون إليه مستبشرين وهو يقرأ : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم(١)» .

وبلغت السفينة أرض الحبشة فانطلق رسول رسول الله— صلى الله عليه وسلم— إلى قصر النجاشي واستأذن فى الدخول عليه . فلما مثل بين يديه لم يخر له ساجدا بل سار مرفوع الرأس يعلوه الوقار يترقرق الورع فى محياه . حتى إذا دنا من الجالس على العرش ألقى عليه تحية الإسلام فرد عليه النجاشي تحيته ثم أجلسه إلى جواره .

وراح الرجل يقص على النجاشي أنباء بدر ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرح فرحا شديدا . ثم دفع إليه الرجل بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففضه النجاشي وراح يقرؤه فاذا بالنبي عليه السلام يوصيه فيه على المسلمين .

وأرسل النجاشي إلى جعفر بن أبى طالب وإلى أصحابه الذين معه بالحبشة فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا

---

(١) آل عمران : ١٢٣ — ١٢٦ .

خلقة ؛ فقالوا له :

— ما هذا أيها الملك ؟

فقال النجاشى وقد تهللت أساريره :

— إنى أبشركم بما يسركم . إن الله عز وجل قد نصر نبيه وأهلك عدوه أبا جهل بن هشام وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط . التقوا بمحل يقال له بدر كثير الأراك كنت أرعى فيه غنما لسيدى من بنى ضمرة .

إن النجاشى لا ينسى تلك الأيام التى باعوه فيها عبدا وقد حمله سيده إلى بلاد العرب ولولا لطف الله لبقى رقيقا ولما عاد إلى عرش آبائه . وإنه ليفتأ يذكر تلك الأيام كلما اجتمع بالمسلمين بالحبشة أو وفد إليه رسل من أرض العرب . فقال له جعفر :

— ما لك جالس على التراب عليك هذه الأخلاق ؟

— كان عيسى عليه السلام إذا حدث له من الله نعمة ازداد تواضعا ، فلما أحدث الله تعالى نصرة نبيه — صلى الله عليه وسلم — أحدثت هذا التواضع .

وكان جعفر ومن معه من المسلمين فى لهفة لسماع أنباء انتصارات بدر فاجتمعوا برسول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وألقوا إليه أسماعهم والرجل يحدثهم بأخبار النصر المبين ويتلو عليهم آيات الله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر

الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم(١) » .

واستمر يتلو عليهم ما أنزل الله على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سورة الأنفال وهم يصغون إليه وقد ترقرقت العبرات فى العيون ، فنصر الله لعباده كان أعظم من أمانيهم وأكبر من أحلامهم وما كانوا يأملون .

ودخل عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة رسولا قريش على النجاشى وهما يحملان الهدايا فى نفس الوقت الذى كان يخرج فيه رسول رسول رب العالمين ، فاختلس عمرو إليه نظرة ثم تقدم ليخر ساجدا بين يدى النجاشى .

وأمره النجاشى أن يرفع رأسه وأن يجلس إلى جواره ففعل عمرو ، فقال له النجاشى :

— مرحبا بصديقى . أهديت لى من بلادك شيئا ؟

— نعم أيها الملك . أهديت لك أدما كثيرا .

ثم قربه إليه فاعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقته . وأمر بسائره فأدخل فى موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأى عمرو طيب نفسه قال :

— أيها الملك إنى رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا ، فاعطنيه فأقتله .

---

(١) الأنفال : ٥ — ١٠

فغضب النجاشي ثم رفع يده فضرب بها أنف عمرو ضربة ظن أنه قد كسره ، فجعل عمرو يتقي الدم بثيابه فأصابه من الذل ما لو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقا منه ثم قال :

— أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتكه .

ورد النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة خائبين ، ثم بعث إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من خيار أصحابه ثلاثين ليهنئوه بنصر الله ؛ فلما سار الرجال بملابسهم الدينية في المدينة اشرأبت إليهم الأعناق ، وأحس اليهود غيرة أن علا شأن رسول الله عليه السلام ، وأبدى المنافقون بأفواههم غير ما تملأ أفئدتهم من حقد على نبي الإسلام ؛ وفاضت قلوب المؤمنين بالبشر والاستبشار .

وانطلق الرجال إلى مسجد الرسول يحملون إليه تحيات النجاشي وتهنئته وأطيب التمنيات . واستقبلهم عليه السلام بالترحاب ثم دار بين الجانبين حوار ودى . فقرأ عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا

وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين . واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذا لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين (١)» .

واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو سورة يس ورهبان الحبشة يضغون إليه وقد جاشت صدورهم بمشاعر رقيقة ، وما لبثوا أن انهمرت الدموع من العيون من أثر الانفعال الشديد ه فأنزل الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع

(١) يس : ١ — ٢١

مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين(١) » .

(١) المائدة : ٨٢ — ٨٥

تدفقت الأموال من مكة إلى المدينة فى فداء أسرى بدر ، وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبه فى الغنائم وفى الأموال ولكنه لم يحتفظ منها بشئ بل رد كل ما أخذ على فقراء المسلمين ، فقد كان عليه السلام إمام الزاهدين وكان يقول :

ـ أفلح الزاهد فى الدنيا ، حظى بعز العاجلة وبثواب الآخرة .

فهو عليه السلام يرى أن من أصبحت الدنيا همه وتسترقه نزع الله الغنى من قلبه وصير الفقر بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبحت الآخرة همه نزع الله الفقر من قلبه وصير الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهى راغمة .

وكان على بن أبى طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وله فيه أسوة حسنة ، وقد كان نصيب على فى غنائم بدر عظيما فالدروع فى قريش يوم بدر كانت كثيرة فلما انهزموا جعلوا يلقونها وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا ، ولقد التقط منها على الكثير وأخذ نصيبه من الأنفال والأموال ، ولو شاء أن يتاجر فى أمواله لكان من أغنياء المسلمين ولكنه كان زاهدا كابن عمه عزت عليه نفسه فهانت عليه الدنيا ، فحب الدنيا رأس كل خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم لا يسلم صاحبه من البغى والكبر ، فان سلم منهما يشغله إصلاحه عن ذكر الله .

إنه يطمع فى أن يكون من المتقين فيدع ما ليس به بأس حذرا عما به بأس ، فكان يخرج عن كل ماله ويؤثر أن يكون فقيرا من أن يكون غنيا فى أمواله بأس ، ويرضى بالجوع ففيه مذلة للنفس وحياة للقلب وقد منع نفسه من الشهوات لكرامة نفسه عليه .

عرف بعد بدر بفارس الإسلام ولم يكن له من قبل ذكر إذا ما ذكرت الحروب ، وقد سمع كثيرا من الإطراء فما زاده المديح إلا تواضعا . وكان يدخل دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ويرى فاطمة الزهراء وأم كلثوم فلا يخطر له الزواج على قلب وإن كانت فاطمة قد صارت زهرة متفتحة فى السادسة عشرة من عمرها . فقد كان مشغولا عن دنياه بالنور الذى ملأ فؤاده .

وجاء أبوبكر الصديق إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب فاطمة فأطرق عليه السلام قليلا ثم قال :

— انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب خطبة الصديق إياها وفكرت فى الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقبت ذلك القضاء الذى ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء عمر إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب فاطمة فقال له عليه السلام :

— انتظر بها القضاء .

ودار حديث فى الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم

أيمن حول خطبة عمر لفاطمة الزهراء ورفض الرسول — صلى الله عليه وسلم — ذلك الزواج فى كياسة وأدب وذلك القضاء الذى ينتظره رسول الله عليه السلام ، ولم يؤد الحوار إلى حقيقة تطمئن إليها قلوب أهل البيت التى كانت حائرة قلقة .

وفطن أبو بكر وعمر إلى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد ادخر الزهراء لعلى بن أبى طالب ، فجاءا إلى على يأمرانه أن يخطبها فنبهاه لأمر كان عنه غافلا ، فجاء رسول الله — صلى الله عليه و سلم — فقال :

— تزوجنى فاطمة .

فأمهله عليه السلام حتى يستشيرها ، فدخل عليها فقال :

— أى بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟

فبكت ثم قالت :

— كأنك يا أبت إنما ادخرتنى لفقير قريش .

— مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما . ما آليت أن أزوجك خير أهلى . والذى بعثنى بالحق ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء .

— رضيت بما رضى الله ورسوله .

وتهلل وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالبشر وخرج إلى ربيبه وابن عمه وقال له :

— هل عندك من شئ ؟

— كلا .

— وأين درعك الحطمية (التى تحطم السيوف) .

— عندى .

ودفع على بالدرع إلى غلامه ليبيعها فانطلق بها إلى السوق ، وبينا هو يبيعهـا بأربعمائة درهم إذ رآه عثمان بن عفان فقال :

— هذه درع على فارس الإسلام لا تباع أبدا .

فدفع لغلام على أربعمائة درهم وأقسم أن لا يخبره بذلك ورد الدرع معه .

وقال النبى — صلى الله عليه وسلم — لأنس بن مالك .

— انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجالسهم التفت عليه السلام إلى على وقال :

— يا على اخطب لنفسك .

فقام على فقال : .

— الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه . وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه . وهذا محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — زوجنى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا .

قالوا :

— ما تقول يا رسول الله ؟

— الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته . المطاع لسلطانه . المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ،

الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرا مفترضا ، وحكما عادلا ، وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا(١) ». وأمر الله يجرى إلى قضائه وقضاؤه يجرى إلى قدره ولكل أجل كتاب ؛ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ؛ فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وخر على ساجدا شكرا لله ؛ فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب .

ثم أمر لأصحابه بطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :

— انتهبوا .

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (إناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان .

---

(١) الفرقان : ٥٤

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيها بكبش من عند سعد بن معاذ وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار ، وقال لعلي :

— لا تحدث شيئا حتى تلقاني .

فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب آخر .

وجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال لفاطمة :

— ائتني بماء .

فقامت تعثر في ثوبها من الحياء فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال لها :

— تقدمي .

فتقدمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بلالا بأن يشتري طيبا بثلث الصداق ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال :

— اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

— ائتوني بماء .

فعلم علي الذي يريد فقام وملأ القعب فأتاه به ، فأخذه وصنع به كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

— اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في شملهما .

وتلا المعوذتين ثم قال :

— ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

ومكث صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لا يدخل على فاطمة ، وفى اليوم الرابع دخل عليهما فى غداة باردة وهما فى قطيفة لهما إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما ، فلما رأياه هما بالنهوض فقال لهما :

— كما أنتما .

وجلس عند رأسهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما ، فأخذ على كرم الله وجهه إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفئها ، وأخذت فاطمة رضى الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك . وراح على بن أبى طالب الذى لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره يصغى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويتلقى منه الحكمة ليقول ذات يوم :

— لا يخافن أحد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه . ولا يستحى من لا يعلم أن يتعلم ، ولا من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم . ما أبردها على الكبد إذا سئلت عما لا أعلم ، أن أقول الله أعلم .

سيطر رسول الله صلى الله عليه وسلم — على طرق تجارة قريش المتجهة إلى الشام والعراق وأصبح يهدد الطريق إلى نجد بعد انتصاره الساحق فى بدر ، وقد أحس المكيون خطورة تحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طرق قوافلهم المتجهة إلى الشمال منذ أن لحقت بهم الهزيمة فرأوا أن لا مناص من جولة ثانية مع المسلمين لوضع حد لذلك الموقف الخطير إن أرادوا ألا تختنق مكة اقتصاديا ، فما إن رجع من حضر بدرا من المشركين إلى مكة ووجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة فى دار الندوة لم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغيبة أهل العير ، حتى مشت أشراف قريش إلى أبى سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد وجبير بن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل والحارث بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة وحويطب بن عبد العزى فقالوا :

— يا أبا سفيان انظر هذه العير التى قدمت بها فاحتبسها فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ، وهم طيبو الأنفس يجهزون بهذه العير جيشا كثيفا إلى محمد ، فقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا .

فقال أبو سفيان :

— وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

— نعم .

— فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور والثائر وقد قتل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى .

ولم يعجب ذلك القرار بعض أصحاب الأموال فى القافلة فدار حوار بين الناس انتهى بأن قالوا :

— بع العير ثم اعزل أرباحها .

كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكانوا يربحون فى تجارتهم للدينار دينارا ، فعزل أبو سفيان الأرباح وأعاد إلى الناس رءوس أموالهم ، وحبس عير بنى زهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبنى عبد مناف بن زهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بنى زهرة جميعا ، وتكلم الأخنس فقال :

— وما لعير بنى زهرة من بين عيرات قريش ؟ !

قال أبو سفيان :

— لأنهم رجعوا عن قريش .

— أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير لا تخرجوا فى غير شئ فرجعنا . فأخذت بنو زهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة كل ما كان لهم فى العير ، وعزل أبوسفيان أرباح القافلة وراح ينفقها فى التأهب لغزو المدينة ليقضى على محمد وأنصاره تأمينا لطريق القوافل إلى الشام والعراق .

وكانت قريش تعتمد على تأييد القبائل القريبة من المدينة ،

بنى سليم فى الجنوب وغطفان فى الشرق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعلم ما بين قريش وسليم من ود فخشى أن تتحرك سليم عقب هزيمة قريش فى بدر وتدهم المدينة ثأرا لحلفائهم سادات قريش الذين تجرعوا غصص الموت ؛ فما إن قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة من بدر ولما ينقض إلا سبع ليال خرج ليغزو بنفسه بنى سليم ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى . ودفع إلى على بن أبى طالب لواءه وكان أبيض ، ثم تقدم بالمسلمين حتى بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر ؛ فأقام على ذلك ثلاث ليال وقد علمت بنو سليم بذلك فلم يحركوا ساكنا وآثروا السلامة ؛ فرجع إلى المدينة بعد أن ألقى الرعب فى قلوب أعدائه ؛ وحذر بنى سليم وغطفان تحذيرا عمليا أن أى حركة عدائية ستقابل بالردع الشديد .

وورمت أنوف اليهود بعد انتصار المسلمين فى بدر وأكل الحسد أكبادهم ، فرأوا أن يعملوا على توهين المسلمين على الرغم من المعاهدة التى عقدها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين المهاجرين والأنصار واليهود . والتى تعاهدوا فيها أن يكونوا يدا واحدة على أعدائهم ، فلاذ كعب بن الأشرف بمكة يرثى قتلى قريش ويحرضهم على الثأر . وأخذ اليهود فى الأسواق يعملون جاهدين على تقليل شأن انتصار المسلمين فى بدر ويحاولون تحريك الأحقاد التى كانت بين الأوس والخزرج والتى نجح الإسلام فى اجتثاثها من أساسها .

وقامت مشكلات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وبين

المسلمين واليهود حول توزيع المياه كان رسول الله يفصل فيها بحكمته ، فلما اختصم إليه فى مهزوز وادى بنى قريظة قضى أن الماء إلى الكعبين لا يحبس الأعلى على الأسفل . وحدث أن خاصم رجل من الأنصار الزبير بن العوام فى شرج من شروج الحرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— اشرب يا زبير ثم خل سبيل الماء .

قضى عليه السلام بأن يروى الزبير أرضه ثم يدع المـــاء للأنصارى فاذا بالأنصارى يقول :

— العدل يا رسول الله وإن كان ابن عمتك .

فتغير وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى عرف أن قد ساءه ما قال : فقال :

— يا زبير احبس المـــاء حتى يبلغ الكعبين ثم خل سبيل المـــاء .

كانت قريش تتاهب لتثب على المسلمين من الخارج ، وكان اليهود يتربصون بهم ليطعنوهم من الداخل ، وكان المنافقون وقد عميت قلوبهم التى فى صدورهم يودون أن تكون الدائرة على المسلمين . وكانت بعض خلافات تنشب بين الأنصار والمهاجرين كان عليه السلام يعمل على إطفائها سريعا ليتفرغ للخطر الخارجى حتى لا يدهم المدينة فجأة ، وللخطر الداخلى الذى يتحفز للتحرك فى أية لحظة .

كان الجو مشحونا بالخطر وكانت العداوة قد بلغت ذروتها بين مكة والمدينة ، ولكن الأنصار كانوا يرون أن هذه العدوة

لن تحول دون خروج المدنيين معتمرين إلى البيت العتيق ، فالعهد بقريش ألا يعرضوا لحاج ولا معتمر إلا بخير . فبينا كان سعد بن النعمان بن أكـّال أخو بنى عمرو بن عوف فى غنم له فى النقيع ، إذ خرج من هناك معتمرا ومعه امرأة له .

كان سـعد شيخا قد هوى فؤاده إلى الحرم فانطلق هو وامرأته وفى صدريهما نشوة روحية غامرة ، فلما أتيا الكعبة طفقا يطوفان بها وقد نزل بهما أمن وسـلام . وفيما هما غارقان فى مناجاة ربهما إذا بأبى سفيان يعدو على سعد ويحبسه بابنه عمرو الذى كان فى يد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبى أن يفديه .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن أخمدت ، فأم عمرو ابن أبى سفيان كانت بنت عقبة بن أبى معيط من قتله محمد عليه السلام صبرا ، فغدت تؤيد أبا سفيان فيما فعل ، وكذلك كانت زوجه هند بنت عتبة وكل الموتورين .

وقال أبو سفيان :

أرهط ابن أكيال أجيبوا دعاءه
تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا
فان بنى عمـرو لئـام أذلة
لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكهلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لو كان سعد يوم مكة مطلقا
لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا

بعضب حسام أو بصفراء نبعة

تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا (١)

وتريث بنو عمرو بن عوف لعل الحمس من أهل الحرم يستنكرون فعلة أبي سفيان ، ولكن الوقت يمر والشيخ محبوس في مكة وأبو سفيان مصر على أن لا يطلق سراحه قبل أن يخلي المسلمون سبيل ابنه عمرو . فمشوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم ، ولما كان رسول الله عليه السلام لا يسأله سائل عن شيء إلا أعطاه إياه ، فقد دفع إليهم بعمـــرو فدفعوا به إلى أبي سفيان ، فخلى سبيل سعد بعد أن أهدر حرمة الحرم الذي كان آمنا .

---

(١) العضب : السيف القاطع . الصفراء : القوس . والنبع : شجر تصنع منه القسي . وتحن : أي يصوت وترها . والانباض : أن يحرك وتر القوس . وتحفز النبل : أي تقذف به وترميه .

أسلم عبد الله بن أبي بن سلول لما وجد أن قومه قد أسلموا جميعا ولكن مرض قلبه لم يبرأ ، فقد كان يحقد فى دفينة نفسه على نبي الإسلام والمسلمين ، فلم ينس أبدا أن هجرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة قد حرمته التاج الذى كاد الأوس والخزرج أن يضعوه فوق رأسه .

وكان حليفا لبنى قينقاع وكانوا أشهر قوم من اليهود وأشجع يهود ، وكانوا صاغة فغدا يمضى بعض الوقت فى حوانيتهم يشاركهم فى الاستهزاء برسول الله عليه السلام وبالمسلمين . وقد كانت المرارة ترفرف على شفتيه بعد انتصار المسلمين على قريش فى بدر ، ولولا نفاقه لخرج إلى قريش كما خرج كعب ابن الأشرف ورثى قتلى بدر بأحر الدموع .

وكان بنو قينقاع أول من نبذ العهد فقد عاهدهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعاهد بنى قريظة وبنى النضير على أن ينصروه على من دهمه من عدوه ، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغى وأعلنوا على الملأ بأفعالهم وسخريتهم من المسلمين نبذهم العهود .

جاءت امرأة من العرب بابل وأغنام فباعتها بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ منهم ، فجعل جماعة من اليهود

يراودونها عن كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون وأطلت الحرب بخطمها . ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل أن يعلنها حربا على اليهود أن يستنفد كل وسائل السلام فجمع أصحابه وعبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول فقد كانا حليفين لبنى قينقاع ، وقال — صلى الله عليه وسلم :

— ما على هذا أقررناهم .

فقال عبادة بن الصامت :

— يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار .

تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم وتشبث به عبد الله بن أبى بن سلول ، فأنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة

على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون(١) » .

وجمع رسول الله عليه السلام بنى قينقاع وقال لهم :

— يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فانكم عرفتم أنى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله تعالى إليكم .

فقالوا مستهزئين :

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ولا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

واتخذوا المسلمين هزوا وطفقوا يقولون ضاحكين إن محمدا يظننا أنا مثل قومه ، والله لو قاتلنا ليعلمن أنه لم يقاتل مثلنا . وقد غرهم أنهم أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا . فأنزل الله تعالى : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار(٢) » . وأنزل تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب

---

(١) المائدة ٥١ — ٥٦ (٢) آل عمران ١٢ — ١٣

الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون .
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم
وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون(١) » .

وتحصن بنو قينقاع في حصونهم بعد أن أبو أن يجنحوا للسلم ،
فسار إليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولواؤه الأبيض بيد
عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله الذى ينزل الرعب في قلوب
أعداء الله الذين يريدون أن يطفئوا نور الله جاهدين . واستخلف
— صلى الله عليه وسلم — على المدينة أبا لبابة وضرب حصارا على
حصون اليهود .

كان الشهر شوال وكان القمر بدرا وكان اليهود يطلون من
الحصون فيرون المسلمين وقد التفوا بالحصون كالأسود فتنخلع
أفئدتهم من الرعب . ويتذكرون ما نال صناديد قريش في بدر ،
قتل الفرسان وأسر الشجعان وهرب على رجليه سادات الناس :
فحكيم بن حزام أطلق ساقيه للريح ، وفارس الفرسان عمرو بن
عبد ود نجا هاربا على قدميه وهو شيخ كبير [illegible] المعركة
جريحا فوصل إلى مكة وهو مشرف على الهلاك . وطفقت أشباح
معركة بدر تتخايل لهم فتفت في عضدهم وتضعف من روحهم
وتزلزل الأرض تحت أقدامهم وتجعل أفئدتهم هواء .

وانقضت خمس عشرة ليلة وبنو قينقاع في حصونهم قد
قذف الله الرعب في قلوبهم ، كانوا أربعمائة حاسر وثلاثمائة

---

(١) الانفال : ٥٨ — ٦٠

دارع وكانوا قادرين على القتال ولكنهم آثروا السلامة ورأوا أن يسلموا قبل التقاء الجيشين ، فسألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن نخلى سبيلهم وأن يجلوا من المدينة وأن لهم نساءهم والذرية وله — صلى الله عليه وسلم — الأموال والسلاح .

ونزلت بنو قينقاع فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يكتفوا فكتفوا ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول وألح عليه فقال :

— يا محمد أحسن فى موالى .

فأعرض — عنه صلى الله عليه وسلم — فأدخل يده فى جيب درع رسول — الله صلى الله عليه وسلم — من خلفه ، فقال له عليه السلام :

— ويحك أرسلنى .

وغضب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى رأوا لوجهه سمرة لشدة غضبه ، ثم قال :

— ويحك أرسلنى .

— والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى فإنهم عترتى وأنا امرؤ أخشى الدوائر .

— خذهم لا بارك الله لك فيهم .

وأمر — صلى الله عليه وسلم — أن يجلوا من المدينة ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاثة أيام .

وجاء ابن أبي بن سلول إلى منزله — صلى الله عليه وسلم — يسأله فى إقرارهم فحجب عنه . فأراد الدخول فدفعه بعض الصحابة فصدم وجهه الحائط فشجه فانصرف مغضبا .

وانقضت الأيام الثلاثة فجاءوا إلى عبادة بن الصامت فسألوه أن يمهلهم فوق الثلاث ، فقال :

— لا ولا ساعة واحدة .

وبلغهم ما نال ابن أبى بن سلول (أبو الحباب) على أيدى صحابة رسول الله عليه السلام فقالوا :

— لا نمكث ببلد يفعل فيه بأبى الحباب هذا ولا ننتصر له .

وخرجوا أذلة من المدينة ليذهبوا إلى أذرعات بالشام .

وكانت أموالهم فيئا لله ولرسوله لأنها لم تحصل بقتال . ولكن رسول الله عليه السلام قسمها بينه وبين المسلمين فكان له الخمس ولأصحابه الأربعة الأخماس . وراح يوزع الخمس على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يعود إلى منزله وليس معه منها بيضاء ولا صفراء .

قريش تتأهب لتثأر ليوم بدر ، واليهود فى قلب المدينة يتآمرون على المسلمين ، والمنافقون يسوؤهم أن تمس المؤمنين حسنة ويفرحون إن أصابتهم سيئة ، والقرآن ينزل من السماء يجادل الكافرين ويتوعد أهل الكتاب ويكشف المنافقين ويشرع للبشر يبين لهم طريق الحلال وطريق الحرام ويهديهم إلى صراط مستقيم .

جاء عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— يا رسول الله إن قوماً من قريظة والنضر قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل .

إن قومهم لما رأوهم آمنوا بالله ورسوله وصدقوه رفضوهم وآلوا على أنفسهم ألا يجالسوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ، فشق ذلك عليهم فأنزل الله فيهم : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون(١) » .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحذر اليهود بعد ما بدت العداوة من بنى قينقاع ويرى أنهم أهل مكر وخداع ، وقد سرق رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر

(١) المائدة ٥٥

ابن الحارث درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم :

— والله ما أخذتها وما لى بها من علم .

فقال أصحاب الدرع :

— بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق .

فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه ، فقال :

— دفعها إلى طعمة بن أبيرق .

وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة :

— انطلقوا بنا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

فكلموه فى ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا :

— إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودى .

فهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يفعل وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهود . حتى أنزل الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون

من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا . هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما . لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما . ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا(١) » .

وكان اليهود يموجون فى المجتمع المدنى يعشون بالأراجيف ويهمسون فى آذان حلفائهم من الأنصار بأقوال مسمومة لعلها تنال من ذلك الولاء العجيب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — : جاء جماعة من اليهود إلى رجال من الأنصار يخالطونهم فقالوا لهم :

— لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر .

وقبل أن يستقر ذلك الوهم فى النفوس المؤمنة أنزل الله تعالى :

---

(١) النساء ١٠٥ — ١١٦

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا . وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا(١) » .

وآمن عبد الله بن سلام وأصحابه بالنبي — صلى الله عليه وسلم — فآمنوا بشرائعه وشرائع موسى ، فعظموا السبت وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا ، فأنكر ذلك عليهم المسلمون فقالوا :

— إنا نقوى على هذا وهذا .

وقالوا للنبي — صلى الله عليه وسلم :

— إن التوراة كتاب الله فدعنا نعمل بها .

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم . هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور . سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب(٢) » .

وكان رجال من قريش يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) النساء ٣٧ — ٤٢ (١) البقرة ٢٠٨ — ٢١١

فى المدينة يعطونه من طرف اللسان حلاوة وإن كانت قلوبهم تفيض بالحقد ، وقد أقبل إلى النبى عليه السلام الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة من عاد بالناس يوم بدر ، وغدا يتحدث حديثا عذبا حتى قال :

— إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم إنى لصادق .

وأعجب النبى — صلى الله عليه وسلم — حديثه فغدا يقبل عليه ويتلو عليه ما أنزل من القرآن ، ثم خرج من عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليعود لمكة فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر. فأنزل الله تعالى فيه : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد(١) » .

وكانت القوافل تأتى إلى المدينة من الشام فتنزل فى أسواقها تبيع الخمور وتشترى التمر ، وكان المسلمون يشترون خمور الشام فما كانت الخمر قد حرمت بعد ، وقد صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما ودعا أناسا من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فطعموا وشربوا . وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم فصلى بهم المغرب فقرأ : قل يأيها الكافرون . فلم يقمها . فأنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون(٢) » .

---

(٢) البقرة ٢٠٤ — ٢٠٦ (١) النساء ٤٣

وكان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث النبي — صلى الله عليه وسلم — وخرجا مع تجار الشام الذين جاءوا يحملون الزيت ، وكانا يؤمان المدينة كل عام مع التجار فرآهما أبوهما فلزمهما وقال :

— والله لا أدعكما حتى تسلما .

فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟

فأنزل الله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم(١) » .

فخلى الرجل سبيلهما وهو حزين .

وكان أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فان شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها وضرها لتفتدى منه بما ورثته من الميت أو تموت هى فيرثها ، فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها اسمه قيس بن أبى قيس فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها يضارها لتفتدى منه بمالها ، فأتت كبيشة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت :

---

(١) البقرة ٢٥٦

— يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى وقد أضرنى وطول على ، فلا هو ينفق على ولا يدخل بى ولا هو يخلى سبيلى .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله .

فانصرفت وسمعت بذلك النساء فى المدينة فأتين رسول الله عليه السلام وقلن :

— ما نحن إلا كهيئة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو العم .

فأنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا . ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا(١) » .

وتوفى أوس بن ثابت الأنصارى وترك امرأة يقال لها أم كحة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا ولا بناته ، وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن

(١) النساء ١٩ — ٢٢

كان ذكرا . إنما يورثون الرجال الكبار وكانوا يقولون :

— لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة .

فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت :

— يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك على بنات وأنا امرأة وليس عندى ما أنفق عليهن : وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته من المال شيئا وهن فى حجرى : ولا يطعمانى ولا يسقيانى ولا يرفعان لهن رأسا .

فدعاهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالا :

— يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى عدوا .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن .

فانصرفوا فأنزل الله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا . وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا(١) » .

ولما أنزل الله تعالى على رسوله : « لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير(٢) » . اشتد ذلك

---

(١) النساء ٧ — ٩ (٢) البقرة ٢٨٤

على أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من قبل ، فجاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فجثوا على الركب وقالوا :

— يا رسول الله والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية . إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا وما فيها ، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا هلكنا والله .

فقال النبي — صلى الله عليه وسلم :

— هكذا أنزلت .

فقالوا :

— هلكنا وكلفنا من العمل ما لا نطيق .

— فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا .

— سمعنا وأطعنا .

واشتد ذلك عليهم وأنزل الله تعالى على نبيه : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (١) » .

ومكثوا حولا وهم في شدة يتدربون على تهذيب نفوسهم حتى لا توسوس في صدورهم بما يكرهون أن يبيحوا به ويعلنوه على الملأ ، حتى أنزل الله الفرج والراحة بقوله : « لا يكلف الله

---

(١) البقرة ٢٨٥

نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين(١) » .

(١) البقرة ٢٨٦ .

٢١

جلس أبو سفيان فى الحرم باسر الوجه مقطب الجبين فهو قد نذر يوم أصاب قريشا فى بدر ما أصابها أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ؛ وها هى ذى الأيام تمر وقد اعتزل نساءه ولم يبر قسمه ، فغدا يفكر فيما يفعله ليبر يمينه التى انتشرت فى مكة انتشار الريح .

وراح أبو سفيان يستعيد تلك الأيام التى كان فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين ظهرانيهم فى مكة ، فانه كان لا يسمع أحد كلامه إلا أحبه ومال إليه ؛ وكان الوليد بن المغيرة يحب أن يجلس إليه ويلقى إليه سمعه حتى قال أعداء ابن عبد الله :

— نخاف أن يصبو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ؛ ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبون قريش بأجمعها .

ورن فى أغوار أبى سفيان ما كان يقول الناس :

— ما كلامه إلا السحر . . إنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر .

ورأى سادات قريش وهم ينهون صبيانهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله ، فلوى شفته السفلى فى مرارة وسخرية ؛ فما نفع الأبناء ذلك التحذير ، بل لكأنما كان إغراء لهم على أن يرتموا فى أحضان دعوته ، سحرهم حتى هان عليهم

فراق الأهل فهاجروا إلى الحبشة ثم المدينة .

وتذكر ابنته أم حبيبة ، إنها خرجت بعد أن أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة وتركته وفضلت عليه إله محمد ودين محمد ، ولكن زوجها ما لبث أن ارتد إلى النصرانية وغدا يقول لأصحاب محمد : أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد . فلماذا لم يزعزع ارتداد زوجها عن دينه ثقتها فى ذلك الدين الذى ابتدعه محمد ؟ ولماذا لم تعد إليه وهو سيد قريش تلتمس منه الصفح ؟ إنها لو عادت مرتدة عن دين الإسلام لرحب بها وغفر لها زلتها وتلك المهانة التى لطخت بها بنى أمية جميعا يوم فرت بدينها إلى الحبشة .

ليت أم حبيبة تعود إليه الساعة معلنة توبتها مستغفرة عن صبوتها فإنها لو فعلت لقلبت هزيمة قريش انتصارا ، وهى أحوج ما تكون إلى تأييد معنوى يعيد إليها ثقتها التى زعزعتها هزيمة بدر .

وأطرق برأسه كأنما يعلن هزيمته . فهو فى عين ذاته يعلم أن أم حبيبة لن تعود إليه . إنه سيصحو من نومه ذات يوم ليسمع أن ابنته قد هاجرت من الحبشة إلى حيث قد استقر المسلمون ، لكأنما قد استمرأت مهانته والهزء من بنى عبد شمس .

وراح يسأل نفسه : ما الذى استهوى أم حبيبة فى ذلك الدين ؟ وما لبث أن رأى بعين خياله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يصلى فى الحجر ويجهر بتلاوته والمشركون يجعلون أصابعهم فى آذانهم خوفا أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته أو يولون على أدبارهم نفورا .

وخطر على ذهنه أبو بكر ، إنه كان تاجرا ناجحا من أثرياء مكة ، راجح العقل سيدا فى قومه ، فكيف آمن بما يدعو إليه محمد وكيف أنفق عن رضى كل أمواله فى سبيل تلك الدعوة ؟ وتحرك بخله فراح يسأل نفسه : أيرضى عن إنفاق أمواله كلها على العزى ؟ فاذا به يفزع ويؤكد لنفسه أن ذلك ليس من العقل وأن محمدا قد سحر أتباعه ولا ريب !

وعجب فى نفسه كيف يصدق أناس عقلاء أن الله يبعث بشرا رسولا . وزاد عجبه لما تذكر أشراف قريش وهم يمشون إلى ابن عبد الله يعرضون عليه أن يملكوه عليهم وأن يترك دعوته التى تفرق بين الأهل فأبى عليهم ذلك . فماذا يريد محمد أكثر من أن يسود قومه ، أن يكون فيهم مثل كسرى وقيصر ؟

كانت آمال أبى سفيان أرضية فلم يكن يجد مجدا أعظم من أن يكون المرء سيد قومه ؛ شريفا مطاعا صاحب السلطة العليا الذى تتعلق مصائر الناس بكلمة ترفرف على شفتيه . وقد جاء الملك إلى محمد يسعى إليه وفتحت له خزائن قومه فماذا يريد من دنياه بعد ذلك الجاه والمال والسلطان ؟ !

لو قبل محمد الملك لقوض كل أحلام أبى سفيان ، ولكن أبا سفيان تمنى صادقا وهو يجرى وراء أفكاره لو أن محمدا عليه السلام قد قبل الملك الذى عرض عليه ، فنار الحسد التى كانت ستزعى فى جوفه أهون من النار التى تأكل أحشاءه لقتل حنظلة وصناديد الرجال ، ولكن الأيام جاءت بما لا يشتهى أبو سفيان فقد آمن الأوس والخزرج بدعوة محمد فأصبحت المدينة خطرا

يهدد تجارة مكة وينذر بيوت المال فيها بالكساد . وقد وقع المحظور يوم بدر وأصبح طريق قوافل قريش إلى غزة فى قبضة المسلمين وطريقها إلى العراق غير مأمون ، بل طريقها إلى نجد محفوفا بالأخطار . وقد أراد محمد أن يؤكد سلطانه على المنطقة فخرج إلى بنى سليم وإلى غطفان حلفاء قريش فى أصحابه ، فآثرت بنو سليم وغطفان السلامة فانسحب الرجال إلى منازلهم تاركين عند مياههم جيش المسلمين المظفر سهنا بالنصر فى أمان .

أن أبا سفيان قد أقسم يوم أن جاءت أنباء قتلى بدر ألا يمس النساء والطيب حتى يغزو محمدا ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر يمينه حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد ، ثم انطلق إلى خيبر وأتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب وضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له .

كان حيي بن أخطب قد عزم على عداوة محمد عليه السلام منذ أن وطئت قدما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أرض يثرب ، وكان وأخوه أبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسدا وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالى فيهما : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير(١) » ؛ وكانا مع نفر من يهود يأتون رجالا من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقولون لهم :

(١) البقرة ١٠٩

– لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فانكم لا تدرون علام يكون . فأنزل الله فيهم : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا(١) » .

كان حيى بن أخطب من أشد اليهود عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم – ولكنه أبى أن يفتح بابه لأبى سفيان ، فقد تذكر ما حاق ببنى قينقاع لما نقضوا عهد محمد ، إنه حاصرهم فى حصونهم وآطامهم حتى اضطروا إلى التسليم . ولولا عبد الله بن أبى بن سلول لضرب محمد أعناقهم . فاقشعر جلد حيى وكره أن يكون نقمة على قومه فهان عليه أن يغلق بابه فى وجه سيد قريش .

وانسل أبو سفيان فى جنح الليل إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير ، إنه صاحب كنزهم فهو الذى تودع عنده حليهم ، ولطالما جاء إليه أبو سفيان يستعير منه الحلى لأهل مكة لقاء بعض المال . فاستأذن عليه فأذن له واجتمع به وراح يقص عليه أنه جاء فى مائتى راكب من قومه ليغزو محمدا ، فدعاه سلام إلى الطعام والشراب وراح يقص عليه خبر الناس ، ولم يستطع أن يعده بمد يد العون لرجاله إذا ما دهموا المسلمين فما حاق ببنى قينقاع كان ماثلا أمام عينيه .

وخرج أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا نخلا فيها ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما

(١) النساء ٣٧

فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت قريش فاستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر وخرج رسول الله عليه السلام في طلبهم في مائتين من المهاجرين والأنصار . وخاف أبو سفيان وأصحابه أن يلحق بهم الذين خرجوا في طلبهم فجعلوا يتخففون بالقاء أزوادهم وكان أكثر ما طرح القوم جرب السويق ، فأخذه المسلمون ثم عادوا إلى المدينة بعد خمسة أيام .

وراح أبو سفيان يقول :

وإني تخيرت المدينة واحدا   لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميتا مدامة   على عجل مني سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ولم أكن   لأفرحه : أبشر بعز ومغنم
تأمل فان القوم سر وإنهم   صريح لؤي لا شماطيط(١) جرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب   أتى ساعيا من غير خلة معدم

وذاع أمر غزوة السويق في القبائل فأصبح أبو سفيان سخرية القوم ومادة التندر في نواديهم ، فقد افتعل غزوة ليبر يمينه ويخدع نفسه حتى يمس النساء والطيب دون أن يخشى في ذلك لومة لائم !

---

(١) شماطيط : مختلطون .

خرج أمية بن أبى الصلت من الشام قاصدا مكة ، فاذا به يعيش طوال الطريق مع ذكريات الأيام فيرى نفسه تارة وهو يخرج مع أبى سفيان بن حرب إلى بلاد فارس وتارة وهما ينطلقان إلى دمشق : فقد كانا حليفين قلما يفترقان .

ومرت القافلة بصومعة راهب. فاذا بالذكريات تنثال على رأسه ، إنه اعتنق النصرانية منذ الشباب وقرأ فى كتبها أن نبيا عربيا يبعث وقال له الرهبان أن قد أظل زمانه ، فكان يطمع فى أن يكون ذلك النبى وسرعان ما رأى نفسه بين نساء ثقيف يحدثهن عن ذلك النبى وأنه هو ، فأحس وهو على ظهر راحلته عرق الخجل يتصبب على وجهه ويبلل لحيته .

ورن فى أغواره ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أبى سفيان ذات يوم ، إنه حديث قد حفر فى عين ذاته يتردد فى نفسه بين آن وآن لكأنما قد صار نشيد حياته :

— هيا صخر .

— ما تشاء ؟

— حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

— إى والله .

— وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا ، بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .

— هو ذاك .

وطفا على سطح ذهنه الحديث الذى دار بينه وبين العالم النصرانى الذى كان قد دخل عليه ، ذلك الحديث الذى كان سبب الحوار الدائر بينه وبين أبى سفيان .

— أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر .

— هو رجل من العرب .

— قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب ؟

— من أهل بيت يحجه العرب .

— وفينا بيت تحجه العرب .

— هو من إخوانكم من قريش .

وكان أمية ثقفيا وكان البيت الذى يحجه العرب فى الطائف

هو اللات . فلما انبعث من أغوار نفسه صوت العالم النصرا محددا قريش أصابه شيء ما أصابه مثله قط ، وخرج من يده فوز الدنيا والآخرة .

— فصفه لى .

— رجل شاب حين دخل إلى الكهولة ، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة .

ورأى أبا سفيان بن حرب يدخل عليه وهو فى الطائف وإذا ماكان بينهما من حوار فى ذلك اليوم يدوى بين جنبيه :

— هل تذكر قول النصرانى ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟

— محمد بن عبد الله .

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب .

— والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهى ولئن ظهر وأنا حى لأطلبن من الله عز وجل فى نصره عذرا .

ثم رأى أبا سفيان وقد قفل راجعا من اليمن فاذا بصدى الحوار يترجع فى نفسه :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

— قد كان لعمرى .

— فأين أنت منه ا أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .

ومرت الثمانى السنين التى قضاها فى البحرين فى ذهنه مرور الطيف ورأى نفسه وهو يقدم الطائف فيقول :

— ما يقول محمد بن عبد الله ؟

— يزعم أنه نبى هو الذى كنت تتمنى .

واحتل صفحة ذهنه خروجه حتى قدم عليه مكة فلقيه :

— يا بن عبد المطلب ما هذا الذى تقول ؟

— أقول إنى رسول الله وأن لا إله إلا هو .

— إنى أريد أن أكلمك فعدنى غدا .

— فموعدك غدا .

— فتحب أن آتيك وحدى أو فى جماعة من أصحابى وتأتينى وحدك أو فى جماعة من أصحابك ؟

— أى ذلك شئت .

— فانى آتيك فى جماعة فأت فى جماعة .

وأرخى الليل سدوله واستمرت القافلة تغذ السير فى الظلمات بينا أضاءت نفس ابن أبى الصلت بالذكريات : فهو يرى فى وضوح نفسه وهو يغدو فى جماعة من قريش ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يغدو معه نفر من أصحابه حتى جلسوا فى ظل الكعبة : فبدأ يخطب ثم يسجع ثم ينشد الشعر ثم يقول :

— أجبنى يا بن عبد المطلب .

— « بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر

قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين(١) » .

وسرى صوت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى وجدانه حتى أتى على السورة كلها وأمية بن أبى الصلت يرتجف فوق راحلته من الرأس إلى القدم ، إنه يحس نفس الإحساس الذى استولى عليه يوم أن سمع السورة فى مكة ، إلا أن صدره قد انشرح لها وهو يسرى فى معبد الله والله أقرب إليه من حبل الوريد .

إنه وثب يوم أن فرغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من تلاوة يس يجر رجليه فتبعته قريش يقولون :

— ما تقول يا أمية ؟

— أشهد أنه على الحق .

— هل تتبعه ؟

— حتى أنظر فى أمره .

إنه خرج إلى الشام وقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة ولم يستطع أن يفر من الحقيقة التى انبلجت فى سريرته ،

(١) يس ١ — ١٢

إنه كان ينتظر نبيا وقد بعث ذلك النبي فحق عليه أن يؤمن به وإن كان يرجو أن يكون هو نفسه رسول الله . فراح يراود نفسه على أن ترضى بقضاء الله حتى إذا ما برأ قلبه من مرض الحسد خرج ليعلن على الملأ شهادة الحق التى كتمها منذ أول يوم عرف فيه أن النبوة كانت فى ابن عبد الله .

وانفعل بالذكريات فراح ينشد :

باتت همومى تسرى طوارقها
أكف عينى والدمع سابقها

مما أتانى من اليقين ولم — أوت برّة يعصَ ناطقها (١)
أم من تلظى عليه واقدة النـ — ـار محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التى وعد الـ — أبرار مصفوفة نمارقها
لا يستوى المنزلان ثم ولا الـ — أعمال لا تستوى طرائقها
هما فريقان فرقة تدخل الجـ — ـنة حفت بهم حدائقها
وفرقة منهم قد أدخلت النـ — ـار فساءتهم مرافقها
تعاهدت هذه القلوب إذا — همت بخير عاقت عوائقها
وصدها للشقاء عن طلب الـ — ـجنة دنيا الله ماحقها
عبد دعا نفسه فعاتبها — يعلم أن البصير رامقها
ما رغّب النفس فى الحياة وإن — تحيى قليلا فالموت لاحقها
يوشك من فر من نيته — يوما على غرة يوافقها
إن لم تمت غبطة تمت هرما — للموت كأس والمرء ذائقها

ونزلت القافلة مياه بدر وأمية بن أبى الصلت يتحرق شوقا

(١) برة علم جنس للمبرة .

للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وغدا يتأهب للانطلاق إلى المدينة فقال قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

— أريد محمدا .

— وما تصنع ؟

— أومن به وألقي إليه مقاليد هذا الأمر .

والتفت الرجل إلى القليب الذى ألقى فيه قتلى بدر ثم قال :

— أتدرى من فى القليب ؟

— لا .

— فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

إنهما ابنا خالته ، فأمه ربيعة بنت عبد شمس وأمهما بنت عبد شمس ، فجدع أذن ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول :

ماذا ببـــدر فالتنـــ ـــقل من مرازبة جحاجح(١)

واستمر ينشد قصيدته ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام .

وعاش أمية أيامه وهو قلق حائر بين الخير الذى أريد به وبين حسده الذى كان يحول بينه وبين أن يركب إلى المدينة ليعلن إسلامه حتى راح يجود بأنفاسه . فأتى أخته الفارعة الخبر فانصرفت إليه فوجدته ممددا قد سجى عليه فدنت منه فشهق شهقة

(١) الجحاجح : السادة . والمرازبة : رؤساء الفرس .

وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته وقال :

— لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، لا ذو مال فيفديني ، ولا ذو أهل فتحميني .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقالت أخته :

— قد هالك الرجل .

فشق بصره نحو السقف فرفع صوته فقال :

— لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف فقال :

— لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، بالنعم محفود ، وبالذنب محصود .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

— لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما .

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

كل عيش وإن تطاول دهـ ـرا صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لى

فى قلال (١) الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر

غولة الدهر إن للدهر غولا

(١) جمع مفرده قلة : وهى أعلى الجبل .

نائلا ظفرها القساور(١) والصد
عان (٢) والطفل فى المنار الشكيلا
ونباث (٣) النياف (٤) واليعفر (٥) النا
فر والعوهج (٦) البرام الضئيلا

ومات أمية بن أبى الصلت شاعر النصرانية من كاد أن يسلم ، دون أن ينطق لسانه بشهادة الحق وإن كان منها على يقين .

---

(١) جمع قسورة وهو الأسد
(٢) والصدعان : ثيران الوحش
(٣) النباث : الرخم
(٤) النياف : الجبال
(٥) واليعفر : الظبى
(٦) والعوهج : ولد النعامة يعنى أن الموت لا ينجو منه الوحوش فى البرارى ولا الرخم الساكنة فى رءوس الجبال ولا يترك صغيرا لصغره ولا كبيرا لكبره .

كانت سليم فى شرق المدينة ومنازل بنى سليم فى عالية نجد بالقرب من خيبر تمتد إلى جنوبى المدينة إلى منتصف المسافة تقريبا بينها وبين مكة من ذات عرق . وكانت ظروف الحياة تحتم تحالف القبائل لضمان أمنها فقانون الصحراء يسود المنطقة ، القبائل القوية تلتهم القبائل الضعيفة ، فراحت كل قبيلة تقوى نفسها بعقد محالفات مع غيرها فالحلف يقوم على أن ينصر الحليف حليفه وأن يمنعه مما يمنع منه نفسه وأن يكون يدا معه على غيره .

وقد تحالفت سليم مع قريش ، فلما نشب القتال فى بدر بين المسلمين والمشركين وروت دماء سادات قريش أرض الصحراء ، أرادت سليم أن تتحرك لتثأر لحلفائها . وقد أحس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذلك فخرج يغزو بنفسه بنى سليم بعد عودته من بدر إلى المدينة بثمانية أيام ، وكانت حركته عليه السلام سريعة ألقت الرعب فى قلوب حلفاء أعدائه فانسحبوا إلى منازلهم وأغلقوا دورهم عليهم ، ونزل عليه السلام والذين معه على مياههم ومكث ثلاثة أيام لم يلق فيها كيدا ، فقفل راجعا إلى المدينة يرصد حركات القبائل المعادية التى تلتف حوله .

وراحت الحياة تسير على مألوفها فى سليم، الرجال يشنون الغارات على القوافل للسطو والنساء ينقلن الماء فى الجرار إلى الدور ويرعين الغنم ويبذلن عنايتهن للنعم . ولما كان القتل فى بدر قد استشرى فى سادات حلفائهم فقد وجد شعر الخنساء صدى فى نفوسهم انتقل إلى مكة لتندب به النادبات .

كانت الخنساء أشهر شخصية فى سليم وكانت تنوح على أخويها معاوية وصخر ، وسرعان ما تتلقف النائحات فى سليم وقريش شعرها للنواح به فى المناحات ، وكان ذلك الشعر يتسلل إلى المدينة وقد ينشده بعض نساء الأنصار والمهاجرين اللاتى فجعن فى الأعزة من الآباء والأخوات وفلذات الأكباد :

يا عين جودى بالدموع المستهلات السوافح
فيضا كما فاضت غروب(١)المترعات من النواضح
وابكى لصخر إذ ثوى بين الضريحة والصفائح
رمسا لدى جدث تذيع بتربه هوج النوافح
السيد الجحجاح وابن السادة الشم الجحاجح
الحامل الثقل المهم من الملمات الفوادح
الجابر العظم الكسير من المباصر والممانح
الواهب المائة الهجان من الخناذيذ (٢)السوابح
الغافر الذنب العظيم لذى القرابة والممالح
بتعمد منه وحلم حين يبغى الحلم راجح

(١) الغروب : جمع غرب وهو الدلو
(٢) الخنذيذ : الفحل

ذاك الذى كنا به ... نشفى المراض من الجوانح
ويرد بادرة العدو ... ونخوة الشنف(١) المكاشح
فأصابنا ريب الزما ... ن فنالنا منه بناطح
فكأنما أم الزما ... ن نحورنا بمدى الذبائح
فنساؤنا يندبن نو ... حا بعد هادية النوائح
يحنن بعد كرى العيو ... ن حنين والهة قوامح(٢)
شعث شر الا ينيب ... ن إذا ولى ليل النوائح
يندبن فقد أخى الندى ... والخير والشيم الصوالح
والجود والأيدى الطوا ... ل المستفيضات السوامح
فالآن نحن ومن سوا ... نا مثل أسنان القوارح(٣)

كانت قريش تبكى قتلاها وكانت سليم تمد النائحات بما ينشدنه ، بينما كان شعراء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يفتخرون بانتصار المسلمين فى بدر ، فها هو ذا حسان بن ثابت يربط بين المقدمة الغزلية والغزوة الكبرى فيقول :

يا من لعاذلة تلوم سفاهة
ولقد عصيت إلى الهوى لوامى
بكرت على بسحرة بعد الكرى
وتقارب من حادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومه
عدم لمعتكر(٤) من الإصرام

---

(١) الشنف : المبغض المتنكر
(٢) الابل القوامح : التى أشتد عطشها
(٣) القارحة : اللتى وقعت أسنانها
(٤) اعتكر : كر وأنصرف

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام (١)
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة(٢) ولجام
جرداء تمزع (٣) فى الغبار كأنها
سرحان (٤) غاب فى ظلال غمام
تذر العناجيج (٥) الجياد بقفرة
مر الذمول بمحصد ورجام
ملات به الفرجين فارمدت (٦) به
وثوى أحبته بشر مقام
وبنو أبيه ورهطه فى معرك
نصر الإله به ذوى الإسلام
طحنتهم — والله ينفذ أمره —
حرب يشب سعيرها بضرام
لولا الإله وجريه لتركنه
جزر السباع ودسنه بحوام (٧)

كانت الأشعار تنتقل بين مكة والمدينة والقبائل ، وكانت

(١) وكان قد فر من المعركة فى بدر
(٢) الطمر : الفرس الجواد
(٣) تمزع : تثب
(٤) السرحان : الذئب
(٥) العناجيج : جمع عنجوج وهو النجيب من الخيل
(٦) أرمدت : أسرعت
(٧) الحوامى : ميامن الحافر ومياسره

الأنباء تفد إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع رجال انبثوا في كل مكان في الجزيرة العربية وكانت قلوبهم مع الإسلام .

فبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعا من بنى سليم وغطفان بقرقرة الكدر يريدون الإغارة على المدينة بعد أن غزاهم — صلى الله عليه وسلم — عقب غزوة بدر بثمانية أيام لما علم أنهم يريدون الثأر لحلفائهم من قريش ، فسار إليهم فى مائتين من أصحابه وحمل لواءه على بن أبى طالب من أصبح اسمه يلقى الرعب فى قلوب أعداء الإسلام بعد أن صال وجال فى بدر وقطع رقاب صناديد قريش وفرسانهم ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

وسار عليه السلام والذين معه حتى نزل قرقرة الكدر وهى أرض ملساء فيها طيور فى ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع ، فلم يجد به أحدا ، وأرسل نفرا من أصحابه إلى أعلى الوادى واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد خمسمائة بعير مع رعاة منهم غلام يقال له يسار ، فاستولوا عليها وانحدروا بها إلى المدينة . فلما كانوا بمحل على ثلاثة أيام من المدينة خمسها صلى الله عليه وسلم ، فأخرج خمسه وقسم الأربعة الأخماس على أصحابه فخص كل رجل منهم بعيران ، ووقع يسار فى سهمه صلى الله عليه وسلم .

وراح يسار يرقب رسـول الله عليه السلام فإذا به يجد الإنسان الكامل ، فتفتح له قلبه وألقى سمعه إلى ما يقرأ من القرآن فإذا بأنوار اليقين تملأ صدره فيتحرك لسانه بشهادة الحق ويقوم يصلى مع المسلمين وقد استبشر بأن هـداه الله الصراط

المستقيم ، فلما رآه عليه السلام فى صفوف المؤمنين أعتقه لوجه الله الكريم .

وعاد — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمس عشرة ليلة ، وغدا يوزع خمس الغنائم على الفقراء والمساكين وابن السبيل فقد كان له الخمس والخمس مردود على المحتاجين فما كان يدخل داره منها شئ ، فقد اختار أن يجوع يوما فيسال الله وأن يشبع يوما فيحمد الله .

وأحس المسلمون عزة فراحوا يتفقهون فى دينهم يلقون أسماعهم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويحفظون ما أنزل عليه من ربه فرحين بما آتاهم ، بينا كان بنو سليم ينفعلون لشعر الخنساء ويترنحون بمراثيهـا لأخويها لكأنما قد باتت الدنيا مناحة لموت رجلين :

أعينى جودا ولا تجمـدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجـرئ الجميل
ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العمـا د سـاد عشيرته أمـردا
إذا القوم مـروا بأيديهم إلى المجـد مد إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القـوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يهوى إلى بيته
يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجـد ثم ارتدى

وقد تأثر بعض نساء المسلمين ورجالهم بذلك النواح فكانوا يقولون إذا ما تحدثوا عن قتلى بدر من المسلمين وكانوا بضعة عشر رجلا ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين :

— مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها .

فأنزل الله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون(١) » .

---

(١) البقرة : ١٥٤

كان المسلمون فى المدينة يأتون البساتين يأكلون ويشربون ، وكانت الخمر تلعب برءوس بعضهم فيأتى من الأقوال أو الأفعال ما ينكرون . وكان أناس منهم يلعبون الميسر فكانوا يذبحون الجزور ويقطعونه عشرة أجزاء ثم يلعبون عليها فمن خسر دفع ثمن الذبيحة بينا توزع اللحوم على فقراء المدينة ، وكان الذين يلعبون لا يجدون فى الميسر من بأس ما دام النفع يعود على الفقراء والمساكين وابن السبيل .

وجاء رجال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يسألونه عن الخمر والميسر فأنزل الله تعالى : « يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما«١» . فلما قرئت على عمر قال :

— اللهم بين لنا من الخمر بيانا شافيا .

وكان مسجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — منارة العلم فى المدينة ، فكان الصحابة يجلسون إليه عليه السلام ويلقون إليه أسماعهم فإذا بالحكمة تنسكب فى أعماقهم ، وإذا بالرعاة البسطاء والتجار الذين كانت كل معارفهم ما يتجرون فيه من طيب وبز وأقوات وبعض معلومات عن البلاد التى جابوها

(١) البقرة : ٢١٩

يتلقون من العلم ما يؤهلهم لأن يصبحوا رعاة أمم وخير أمة أخرجت للناس .

وذات يوم جلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فذكر الناس ووصف القيامة ولم يزدهم على التخويف فرق الناس وبكوا ، فاجتمع أناس من الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى ، فيهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعبد الله ابن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ويترهبوا ، فبلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجمعهم فقال :

— ألم أنبأ أنكم اتفقتم على أن تصوموا النهار وتقوموا الليل ولا تناموا على الفرش ولا تأكلوا اللحم ؟

— بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير .

فقال عليه السلام :

— إنى لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا ، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم ، ومن رغب عن سنتى فليس منى .

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال :

— ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا ، فإنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع . وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتها الجهاد . واعبدوا

الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فى الديارات والصوامع . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون(١) » .

وكانوا قد حلفوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء فقالوا :

— يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟

فأنزل الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون(٢) » .

وراح المسلمون يشربون الخمر ويقولون :

— ما حرّم علينا إنما قال : « فيها إثم كبير » .

وغدوا يقولون لرسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى .

فسكت عنهم وظلوا يشربون حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه فى المغرب خلط فى قراءته ،

(١) المائدة ٨٧ — ٨٨ (٢) المائدة ٨٩

فأنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون(١) » .

— حرمت الخمر .

فقالوا :

— يا رسول الله إنا لا نشربها قرب الصلاة .

فسكت عنهم وكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة ينادى :

— لا يقربن الصلاة سكران .

كان الناس يشربون حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، وكان عمر بن الخطاب يقول :

— اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا .

وأتى سعد بن أبى وقاص على نفر من المهاجرين فقالوا :

— تعال نطعمك ونسقيك خمرا .

فأتاهم فى بستان وإذا رأس جزور مشويا عندهم ودن من خمر ، فأكل وشرب معهم وذكر الأنصار والمهاجرين فقال :

— المهاجرون خير من الأنصار .

أخذ رجل لحى الرأس فجدع أنفه بذلك ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

وشربت قبيلتان من قبائل الأنصار ، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول :

---

(١) النساء ٤٣

— صنع بى هذا أخى فلان ، والله لو كان بى رءوفا رحيما ما صنع هذا بى .

وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن فإذا بالضغائن تقع فى قلوبهم .

وكان لعلى بن أبى طالب ناقة من نصيبه من المغنم يوم بدر ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعطاه ناقة من الخمس ، ولما أراد أن يبتنى بفاطمة بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واعد رجلا صواغا من بنى قينقاع أن يرتحل معه فيأتيان بأذخر ، أراد أن يبيعه من الصواغين فيستعين به فى وليمة عرسه .

كانت الناقتان مناختان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار ، وكان على يجمع لناقتيه من الأقتاب والغرائر والحبال ، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب فى بيت الأنصارى يشرب عنده وقينة تقول فى غنائها :

ألا يا حمز للشرف النواء وهن معقـلات بالفناء
زج السكين فى اللبات منها
فضرجهن حمـزة بالدمـاء
فأطعم من شرائحها كبابا ملهوجة على رهج الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجى لكشف الضر عنا والبلاء

فوثب إلى السيف فأجب أصنام ناقتى على بن أبى طالب وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما ، فلما جاء على ورأى ما وقع لناقتيه لم يملك عينيه حين رأى ذلك المنظر ، قال :

— من فعل هذا ؟

— فعله حمزة وهو فى البيت فى شرب من الأنصار .

فانطلق على حتى أدخل على النبي — صلى الله عليه وسلم — وعنده زيد بن حارثة ، فعرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى لقى فقال :

— مالك ؟

— يا رسول الله ما رأيت كاليوم . عدا حمزة على ناقتى وجب أسنمتهما وبقر خواصرهما . ها هو ذا فى بيت معه شرب شرب .

فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بردائه ، ثم انطلق يمشى فاتبع على أثره وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذى هو فيه ، فاستأذن فأذن له فاذا هم شرب ، فطفق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمرة عيناه . فنظر حمزة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال :

— وهل أنتم إلا عبيد أبى ؟

فعرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه ثمل ، فنكص على عقبيه القهقرى فخرج وخرج على وزيد . وأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون(١) » ، فقال رسول الله

(١) المائدة ٩٠ — ٩١

— صلى الله عليه وسلم :

— حرمت الخمر .

ودُعي عمر فقرئت عليه . فلما بلغ « فهل أنتم منتهون » قال عمر :

— انتهينا .

وكان أنس بن مالك ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة ، كان يسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل ابن البيضاء ونفرا من أصحابه حتى كان الشراب يأخذ بهم ، فاذا مناد ينادي ، قال أبو طلحة :

— اخرج فانظر .

فخرج أنس فاذا مناد ينادي :

— ألا إن الخمر قد حرمت .

فقالوا :

— يا أنس ، أكف ما بقي في إنائك .

فما قالوا حتى ننظر ونسأل ، بل أطاع المسلمون وغدوا يهرقون ما عندهم من الخمر .

وتوضأ بعض الرجال واغتسل بعضهم وطيبوا ثم خرجوا إلى المسجد ، فاذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرأ : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . . » ثم قال :

— من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها .

فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم :

— عندى راوية .

ويقول الآخر :

— عندى زق .

أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال — صلى الله عليه وسلم :

— اجمعوا ببقيع كذا وكذا ثم آذنونى .

ففعلوا ثم آذنوه ، فقام وقام معه عبد الله بن عمر ومشى عن يمينه وهو متكئ عليه ، فلحقهما أبو بكر فأخره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجعله عن شماله وجعل أبا بكر فى مكانه ، ثم لحقهم عمر بن الخطاب فأخر رسول الله عبد الله بن عمر وجعل عمر عن يساره ، فمشى بينهما حتى بلغوا المربد ، فاذا بزقاق على المربد فيها خمر فقال للناس :

— أتعرفون هذا ؟

— نعم يا رسول الله ، هذه الخمر .

— صدقتم ، فان الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها .

فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمدية فقال :

— اشحذوها .

— ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرّق بها الزقاق فقال الناس :

— فى هذه الزقاق منفعة .

— أجل . ولكنى إنما أفعل ذلك غضبا لله عز وجل لما فيها من سخطه .

فقال عمر :

— أنا أكفيك يا رسول الله .

— لا .

وجرت الخمر فى سكك المدينة أنهارا .

وقال أناس :

— يارسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟

فأنزل الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين(١) » .

---

(١) المائدة ٩٣

كان لغطفان إله على مشارف الشام يدعى الأقيصر فكانوا يحجون إليه كما كانوا يحجون إلى البيت العتيق ، وكانوا يفخرون بشاعرهم النابغة الذبيانى فقد كانت تضرب له قبة فى سوق عكاظ وكان الشعراء من كل القبائل يخفون إليها ليحتكموا إليه فى أشعارهم :

وكان حساد النابغة من غطفان يقولون إن الرباح بن ميادة أشعر غطفان وهو خير لقومه من النابغة ، فهو لا يمدح غير قريش وقيس بينا يهذى النابغة باليمن ويطوف على ملوك الحيرة يعيش بشعره على موائد المناذرة .

وكانت غطفان سعيدة بتحالفها مع قريش ، فقريش سادات البيت الحرام الذى يأمن فيه الطير ولأشرافها الكلمة المسموعة فى العرب ، وهم ذوو قوة ومنعة وأصحاب تجارة ممدودة وجاه وسلطان ونجدة .

وكانت غطفان مطمئنة بحلفها لا تخشى غدر جيرانها من القبائل ، وكانت فى نفس الوقت على صلة وثيقة بالأوس والخزرج فمساكنها كانت قريبة من خيبر ، فكان الغطفانيون يزورون يثرب وينزلون بأسواقها فتوطدت صلات طيبة بينهم وبين اليثربيين من أوس وخزرج ويهود .

وكان لغطفان أثر فى الحروب التى كانت تنشب بين الحين والحين بين الأوس والخزرج ، فقد بعث رجل من غطفان من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان إلى يثرب بفرس وحُلة مع رجل من غطفان وقال :

— ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فجاء الرجل بهما حتى ورد سوق قينقاع فقال ما أمر به ، فوثب إليه رجل من غطفان كان جاراً لمالك بن العجلان الخزرجى يقال له مالك بن الثعلبى فقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحيحة بن الحلاج أعز أهل يثرب .

وكثر الكلام فقبل الرسول الغطفانى قول الثعلبى الذى كان جاراً لمالك بن العجلان ، ودفعهما إلى مالك فقال كعب الثعلبى :

— ألم أقل لكم إن حليفى أعزكم وأفضلكم !

فغضب رجل من بنى عمرو بن عوف يقال له سُمَيْر فرصد الثعلبى حتى قتله ، فشبت بين الأوس والخزرج حرب سُمَيْر .

وظلت علاقة غطفان بيثرب طيبة حتى هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجر الأنصار عبادة الأوثان فتغيرت قلوب الغطفانيين وأصبح هواهم مع قريش ، فقد كان فى جوف الكعبة صنم لإلههم الأقيصر وكانت قريش حاملة لواء الدفاع عن الأصنام .

ووقع الصدام بين قريش ومحمد عليه السلام وصحبه عند ماء بدر وانتصر المسلمون وقتل صناديد قريش . وقال أعداء الإسلام لما سمعوا بمقتل أشراف حماة الحرم : لبطن الأرض خير من وجهها ، وكانت غطفان ممن ساءها هزيمة حلفائها فأرادت أن تدهم المدينة بالهجوم لتقوم بحق الحلف انتقاما لأصحاب القليب . ولكن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أفسد تدبير القوم فقد فاجأهم بالهجوم عقب بدر ، فأغلقوا عليهم منازلهم ولم يحركوا ساكنا ، ونزل محمد — صلى الله عليه وسلم — والذين معه مياههم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة دون أن يلقى كيدا .

وكان الغطفانيون يستشعرون مهانة لأنهم لم يقوموا بحق الحلف الذى كان بينهم وبين قريش ، فكانت فكرة الهجوم على المدينة هجوما خاطفا تداعب أخيلتهم حتى قام رجل منهم يدعى دعثور بن الحرث الغطفانى من بنى محارب بجمع جمعا من ثعلبة ومحارب ليصيبوا من أطراف المدينة حتى يحفظوا ماء وجوههم أمام حلفائهم سادات الحرم الذين قتل أشرافهم عند بدر .

وبلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مايدبر دعثور ، فخرج إليهم فى أربعمائة وخمسين رجلا لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وأصاب أصحاب رسول الله عليه السلام رجلا منهم يقال له حباب من بنى ثعلبة ، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر إليه هابه وأحس نفسه تذهب شعاعا ، فما

إن سأله عليه السلام عن دعثور ومن معه حتى راح الرجل يقص كل شئ ، ثم قال له :

— لن يلاقوك ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا فى رءوس الجبال وأنا سائر معك .

وراح حباب يرصد المسلمين ، إنهم رهبان فى الليل فرسان بالنهار ، إخوان متحابون . وانبلجت الدهشة فى نفسه فقد كان على علم بالعداوة التى كانت بين الأوس والخزرج ، فمن ذا الذى طهر قلوب أقوام كانت تنبض بالضغينة والحقد ؟ ومن ذا الذى صهرهم فى بوتقة واحدة فأصبحوا أنصارا لنبيهم لا فرق بين خزرجي وأوسى ؟ ! وغدا حباب يصغى إلى ما يتلون من قرآن فاذا به يسمع : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم(١) » . فانزاحت الدهشة عنه فما كان بشر بقادر على أن يؤلف بين تلكم القلوب المتنافرة مهما كان على خلق عظيم ، إنها قدرة إله عزيز حكيم التى ألفت بين أعداء الأمس فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وألقى التصديق فى عين ذات حباب فأسلم وضمه — صلى الله عليه وسلم — إلى بلال .

كان بلال لايفارق رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فاذا ما حان أوان الصلاة كان يؤذن للمسلمين فكانوا يهرعون ليصطفوا خلف النبى عليه السلام ، وكان لايتناول طعاما إلا من طعام النبي وكان غالبا بعض تمرات أو قعب لبن ، فأصبح

---

(١) الأنفال ٦٣

حباب رفيق بلال وغدا يتهلل بالفرح أن صار فى صحبة نبى الإسلام عليه السلام ينهل من فيض علمه ويسعد بأنوار اليقين التى تأتلق فى صدره .

وأخذ حباب بالمسلمين طريقا وهبط بهم على غطفان فسمعوا بمسير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهربوا فى رءوس الجبال ، وانطلق المسلمون حتى نزلوا ماء يقال له ذو أمر فعسكروا به . وسرعان ما هطلت الأمطار غزيرة بلت ثياب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وثياب أصحابه ، فنزع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا وعلق بها سيفه واضطجع تحتها .

واشتغل المسلمون فى شئونهم وكان دعثور يرصدهم من بعيد ، فلما وقع بصره على رسول الله عليه السلام ووجده قد انفرد قال :

— قتلنى الله إن لم أقتل محمدا .

وانسل دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال :

— من يمنعك منى اليوم ؟

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ثبات دون أن تختلج عيناه :

— الله .

وملئ دعثور رعبا من ذلك الثبات العجيب الذى قابل به رسول الله عليه السلام تهديده ، لم يرتجف ولم يرتد فزعا ، بل

اضطرب السيف فى يد من أقسم أن يقتل محمدا وسقط منها على الأرض من شدة الخوف ، فأخذ السيف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال له :

— من يمنعك منى ؟

فقال وهو يرتجف وقد اقشعر جلده :

— لا أحد .

ثم جمع شتات نفسه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فأعطاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سيفه فانقلب إلى أهله وغدا يدعو قومه إلى الإسلام .

وصدق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما قال : نصرت بالرعب . وأنزل الله تعالى على عبده : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون(١) .

---

(١) المائدة ١١

دخل عبد الله بن مسعود كاتم سر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه ، فقال :

— يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه .

فقال عليه السلام فى بساطة :

— ما لى وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

ومر الوقت واستبد برسول الله — صلى الله عليه وسلم — الجوع فخرج من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر فسألهما عن خروجهما فقالا :

— أخرجنا الجوع .

— وما أخرجنى إلا الجوع .

فذهبوا إلى أبى الهيثم فأمر لهم بشعير وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء معلقا عنده فى نخلة ، ثم أتوا بالطعام فأكلوا وشربوا من ذلك الماء . فقال عليه الصلاة والسلام :

— لتسألن عن نعيم هذا اليوم ؟

كان — صلى الله عليه وسلم — مرهف الحس زاهدا فى الدنيا ، فما كان يعرف الكنز ، فاذا ما وصلت إلى يده صفراء أو بيضاء

تصدق بها ، وكان له من الغنائم الخمس والخمس مردود على فقراء المسلمين والمساكين ، وما كان يحتفظ لنفسه بناقة أو شاة ليذبحها لأهل بيته بل كان عليه السلام وأهله يعيشون على الأسودين : التمر والماء .

وكان قدوة لأصحابه ، فبينا كان جالسا مع رجال من المهاجرين والأنصار ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه — صلى الله عليه وسلم — بكى ، فمصعب كان فى نعمة قبل الإسلام لا يرتدى إلا أفخر الثياب ، وكانت أمه تغمره بعطفها وحنانها وما كانت تبخل عليه بمال ، ثم التفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ووضعت بين يديه صفحة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

— يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة .

— بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان القرآن ينزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، إنه أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن عند نزولهن ، ومنه آى يقع تأويلهن بعد نزولهن ، ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، وكان الناس يأتون رسول الله عليه السلام يسألونه بعض ما غمض عليهم من تأويل بعض الآيات ، فلما أنزل الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم

أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون(١) » : أتى أبو ثعلبة الخشنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

— كيف نصنع فى هذه الآية ؟

— أية آية ؟

— قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » .

— بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فان من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم .

— يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟

— بل أجر خمسين منكم .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم يحب — أن يسمع القرآن ، قال لعبد الله بن مسعود :

— اقرأ علىّ .

— يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى .

فقرأ ابن مسعود سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء

(١) المائدة ١٠٥

شهيدا(١) » ، فقال عليه السلام :

ـ حسبك الآن .

فاذا عيناه تذرفان .

وجاءت إلى داره عجوز فقال لها :

ـ من أنت ؟

فقالت :

ـ جثامة المزنية .

ـ أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟

ـ بخير بأبى أنت وأمى .

فلما خرجت قالت عائشة :

ـ يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟

ـ إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

كان المثل الأعلى فى الشجاعة ، ففى ذات ليلة هب أهل المدينة على صوت أنكروه وانطلقوا إلى ناحية الصوت ، فاذا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتلقاهم راجعا على فرس عرى ، فقد كان أول من أسرع قبل الصوت ويقول لهم فى حنان الأب :

ـ لن تراعوا .

وكان القدوة الحسنة فى الوفاء والمثل الكامل فى الزهد والقناعة والتواضع والعدل والمعروف وحسن الخلق . وكان يدعو ربه : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا . إنه يعيش لله وبالله وفى الله فاذا أتاه أمر يحبه قال :

---

(١) النساء ٤١

ـ الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وإذا أتاه أمر يكرهه قال :

ـ الحمد لله على كل حال .

وإن قصد فعل شيء قال :

ـ اللهم خر لى واختر لى .

وإن أراد سفرا قال :

ـ اللهم بك أصول وبك أجول .

وإذا أراد نوما قال :

ـ اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه .

وإن استيقظ قال :

ـ الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وإن لبس ثوبا جديدا قال :

ـ الحمد لله الذى رزقنى ما أتجمل به فى حياتى .

وإن أكل قال :

ـ الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .

وإن شرب قال :

ـ الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا .

وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال :

ـ لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وإذا هب من نومه فى الليل قال :

— رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم .

زكاه ربه ومدح حسن خلقه فى قرآنه فأنزل فيه : « وإنك لعلى خلق عظيم(١) » فكاد أصحابه أن يفتنوا به فكانوا يقولون :

— ما شاء الله وشاء محمد .

ودخل الطفيل بن سخبرة أخو عائشة أم المؤمنين لأمها فنام ، فرأى فيما يرى النائم كأنه أتى على نفر من اليهود فقال :

— من أنتم ؟

قالوا :

— نحن اليهود .

— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله .

— وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

ثم مر بنفر من النصارى فقال :

— من أنتم ؟

— نحن النصارى :

— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله .

— وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .

فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النبى عليه السلام فأخبره فقال :

— هل أخبرت بها أحدا ؟

— نعم .

فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) القلم ٤

— أما بعد فان طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا « ما شاء الله وشاء محمد » ولكن قولوا : « ما شاء الله وحده » .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يحدثه ثم قال :

— ما شاء الله وشئت .

فقال عليه السلام فى غضب :

— أجعلتني لله ندا ؟ ! قل : ما شاء الله وحده .

كانت مكة تغلي بالحقد على محمد — صلى الله عليه وسلم — وصحبه ، فأبو سفيان بن حرب زعيم قريش وسيدها كان ينظر إلى الدنيا يوم أن بعث عليه السلام ، فقد كان يعلم أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — صدوق لا يكذب وإنما كان يرى أن إيمانه بما جاء به ابن عبد الله فيه قضاء على أحلامه وأمانيه ، فقد جاء أمرا لا يبقى معه شرف فخاصمه ولج في الخصام حمية وكراهية أن يذهب شرفه .

فلما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة واستقر بها وألف بين قلوب الأوس والخزرج استمر حقد أبي سفيان على نبي الإسلام ، فالمدينة تقع على طريق قوافل قريش المنطلقة إلى الشام وتهدد طريق القوافل الصاعدة إلى العراق . فلو تحرك محمد عليه السلام ليهاجم قوافل قريش انتقاما لإخراجه وأصحابه من ديارهم وعوضا عن أموالهم التي صودرت في مكة فسيهدد تجارة قريش مع الشام والعراق بالبوار مما يذهب عزها وسلطانها .

وكانت مخاوف أبي سفيان تغذي كراهيته لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، والمهاجرين والأنصار ، فلما تحققت مخاوفه يوم أن خرج عليه السلام والمسلمون ليتعرضوا لعير قريش الآتية من الشام تيقن أن كيان قريش مهدد بالزوال ما دام لمحمد عليه السلام كلمة مطاعة في المدينة . وأن لن يكون أمان قبل القضاء قضاء مبرما

على الخطر الكامن على طرق الشمال .

وبلغ حقد أبى سفيان غايته لما جاءت أنباء بدر وحمل إليه الناعى خبر مقتل ابنه حنظلة وأسر ابنه عمرو ، فقد أصبح بينه وبين المسلمين ثأر ، إلى عار الهزيمة الذى جلل قريش جميعا وقطع الطريق إلى الشام ، فصار عليه وهو زعيم القوم أن يثأر لقتلى بدر وأن يغسل ما لحقهم من عار وأن يطهر طرق القوافل من الأعداء .

وكانت زوجه هند بنت عتبة قد عادت محمدا — صلى الله عليه وسلم — منذ جهر بدعوته ، فهى مؤمنة أشد الإيمان بدين الآباء فكانت عداوتها لرسول الله عليه السلام فى سبيل عقيدتها ، ولم تخف أبدا كراهيتها لابن عبد الله وما يدعو إليه ولم تجامل ولم تحاول أن تخفى عواطفها ، فذات يوم أقبل أبو سفيان من الشام ومعه هند ومعاوية على حمار ، فلما دنوا من مكة لقيهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال أبو سفيان لمعاوية :

— انزل يركب محمد .

فقالت هند فى إنكار :

— أينزل ابنى لهذا الصابئ ؟

قال أبو سفيان :

— نعم .

وكان يحرك غضبها دخول أخيها أبى حذيفة فيما يدعو إليه ابن أبى كبشة ، وبلغ غضبها غايته لما قتل يوم بدر أبوها عتبة وأخوها الوليد وعمها شيبة ، وقد أبت أن تبكيهم أو تندبهم قبل أن تثأر لهم من المسلمين .

وراحت هند تحرض زوجها أبا سفيان بن حرب على قتال محمد والذين معه . وكانت وقود حقده حتى جعلته يقسم أن لا يغتسل من جنابة قبل أن يثأر لقتلى بدر . فلما طال الزمن افتعل أبو سفيان غزوة السويق ليبر قسمه . ولكن ذلك لم يشف غليل هند فلن يهدأ لها بال ما دام حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب يمشيان فى الأرض .

ولم تستطع قريش أن تطوى صدورها على أحزانها حتى يحين يوم الانتقام فبكت قتلاها أحر البكاء . وانطلق لسان هند بالشعر لتنفس عن لوعتها إلى حين :

لله عينـــا مـــن رأى   هلكا كهـــلك رجاليـه
يا رب باك لى غـــــدا   فى النائبـــات وباكيــه
كم غـــادروا يوم القليب   غـــداة تلك الداعيه(١)
من كل غيث فى السنين   إذا الكواكب خاويـــه
قد كنت أحـــذر ما أرى   فاليوم حـــق حذاريـــه
يا رب قائلـــة غـــــدا   يا ويـــح أم معاويــــه

وكان أبى بن خلف يجلس فى الحرم لا هم له إلا تحريض القوم على قتال المسلمين ، فهو وإن كان قد فر طلبا للنجاة إلا أنه قد سمع بما صنع بأخيه أمية بن خلف ، فعبد الرحمن بن عوف صديقه الذى ما كان يفارقه قبل أن يفرق ابن عبد الله بينهما لم يستطع أن ينقذه من سيوف المسلمين ، فبلال بن رباح صاح صيحته فاذا بأخيه وابن أخيه على قد صارا فى الغابرين .

(١) الصراخ

وراح أبي يتذكر تلك الأيام التي كانوا يعذبون فيها بلالا برمضاء مكة : إنه أوشك على الموت مرات . فيا ليتهم قضوا عليه فلو كان قد مات لما مات أمية بن خلف وابنه على ، ولما جلس هو فى الحجر يكتوى بنارهما !

وكان صفوان بن أمية بن خلف أكثر المشركين حقدا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم : فان كان أبو جهل بن هشام قد أخزاه الله يوم بدر فان صفوان قد نهض ليحمل لواء الكراهية والبغضاء لنبي الإســلام — صلى الله عليه وسلم — وللأنصار والمهاجرين .

كان أبو فكيهة يسار مولى صفوان قد أسلم . وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا جلس فى الحرم فجلس إليه المستضعفون من أصحابه ؛ خباب وعمار وأبو فكيهة وصهيب . هزئت بهم قريش وكان صفوان يقول :

— هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء وما خصهم الله به دوننا . كان صفوان من المستهزئين وقد غالى فى سخريته وتهكمه لما أنزل الله فى المستضعفين : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل

منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم(١) » .

إنه كان يتهكم بمحمد عليه السلام وبالمستضعفين ، ولكنه كان وهو جالس فى ظل الكعبة يصغي إلى كعب بن الأشرف وهو ينفث سمومه فى صدره يتحرق شوقا إلى قتال من قتلوا أباه وأخاه وأذلوه .

إنه بعث عمير بن وهب بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير ليقتل محمدا ، وغدا صفوان يقول لقريش :

— أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر !

ورجع عمير بن وهب إلى مكة بعد أن أسلم ، وأخزى الله صفوان فان الذاهب لقتل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإطفاء نور الله قد عاد إلى مكة يدعو أهلها إلى الله وإلى رسول الله وإلى الإسلام .

وراح صفوان يحرض الناس على عداوة رسول الله عليه السلام ، حتى جاء أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى ، إنه شاعر وللشعراء مكانتهم فى إثارة العداوات وإشعال نار الخصومات ، وغدا يغريه بعداوة نبي الإسلام .

كان أبو عزة قد وقع أسيرا فى بدر فأعتقه رسول الله — صلى الله عليه وسلم - دون فداء لما قال له : إن لى خمس بنات ليس لهن شيء ، فتصدق بى عليهن يا محمد ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدا فقال أبو عزة :

من مبلغ عنى الرسول محمدا   بأنك حق والمليك حميد

---

(١) الأنعام : ٥٤

وأنت امرؤٌ تدعو إلى الحق والهدى   عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤٌ بوئت فينا مباءة   لها درجات سهلة وصعود
فانك من حاربته لمحارب   شقي ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكرت بدرا وأهله   تأوب ما بي حسرة وقعود

وظل صفوان يحاول أن يوغر صدر أبي عزة على النبي صلى الله عليه وسلم — وأبو عزة يقول :

— إني قد أعطيت محمدا موثقا ألا أقاتله ولا أكثر عليه أبدا ، وقد من علي ولم يمن على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء .

فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل وإن عاش أعطاه مالا كثيرا لا يأكله عياله .

فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها .

وجاءت أم الفضل لتطوف بالحرم فمد كعب بن الأشرف عينيه إليها ، إنها زوجة العباس عم النبي وهي أول امرأة آمنت به بعد زوجه خديجة ، فان تشبب بها وهو شاعر يسير الركبان بشعره فسيجرح ذلك كبرياء المسلمين ويؤذي محمدا ، فاستراح للفكرة فلم يعد لكعب بن الأشرف هم إلا أن يقضي على نبي الإسلام عليه السلام . فلو قتل لماتت دعوته التي أصبحت تقض مضاجع قريش والمشركين والحاسدين واليهود .

خاف القرشيون طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام فرأوا أن خير ما يفعلون أن يسلكوا طريق العراق . فاستأجروا فرات بن حيان رجلا من بنى بكر بن وائل يدلهم فى ذلك على الطريق .

وتجمعت عير قريش فى الحرم تحمل فضة كثيرة وهى عظم تجارتهم . وأقبل أبو سفيان بن حرب تحف به أشياخ قريش وسادات بنى أمية والتجار الخارجون معه فطافوا بالبيت سبعا ثم أذن أبو سفيان بالرحيل .

وانطلقت العير بعد أن دعا القوم آلهتهم لتحمى الرجال والأموال من أعدائهم ، وما إن غابت القافلة فى الأفق البعيد حتى خفقت القلوب رهبة ونزل بالنفوس قلق ، فقد شغل الأذهان ما كان بين رجالهم وبين المسلمين يوم بدر ، فابن عبد الله قد خرج أصحابه فى طلب القافلة التى كانت فى طريق عودتها من الشام ، ولولا حرص أبى سفيان لما أفلتت من قبضة المسلمين .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعلم أن قوة قريش فى تجارتها وأنه إذا هدد طريق قوافلها قطع الشريان الذى يمدها بالحياة والقوة فيجعلها تترنح وتخر مستسلمة عند أقدام من أكرهوا على الخروج من ديارهم ومن صادرت قريش أموالهم ، فكان يرصد العيون ليعرف أنباء العير المنطلقة إلى الشمال ليروعها بغاراته التماسا للغنيمة

وتحطيما لروح أعدائه المعنوية بتأكيد سيطرته على الطريق .

ونزلت قافلة قريش على القَرَدة ، ماء من مياه نجد التماسا للراحة ، ونحر الرجال الجزور وأوقدوا النيران وتأهبوا ليمضوا أمسية جميلة فى ضوء القمر . وإذا بصوت النذير يعكر عليهم صفوهم ويصيح :

— الفزع .. الفزع .

فهب أبو سفيان ومن معه مرعوبين وأحسوا أن المسلمين قد أغاروا عليهم فانطلقوا إلى رواحلهم يمتطونها ويسرعان ما ولوا هاربين وقد شغل كل منهم بنفسه . فنسوا القافلة وما فيها من فضة كثيرة .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد بعث زيد بن حارثة فلقيهم على ذلك الماء ، فلما أحسوا به أطلقوا لرواحلهم الأعنة . فأعجزه الرجال وأصاب تلك العير وما فيها . ثم انقلب إلى المدينة يحمل الغنيمة .

وقسمت الأموال وكان لله ورسوله الخمس ، فغدا نبي الإسلام عليه السلام يوزع نصيب الله ونصيبه من الأنفال حتى إذا ما أتى على كل ما آل إليه دخل داره لينام على الحصير .

كان زيد قد تزوج أم أيمن وكانت تكبره بسنين كثيرة ، وكان ثمرة ذلك الزواج أسامة حب رسول الله — صلى الله عليه وسلم . وغدا أسامة هو الصلة الطيبة بين الزوج الشاب وزوجه العجوز فقد أحس زيد رغبة فى الزواج من شابة . ولما كان ابن محمد وأول من أسلم بعد على بن أبى طالب وقد آخى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بينه وبين عمه حمزة بعد أن هاجر إلى المدينة وآخى بين أصحابه ، فقد راح زيد يتطلع إلى الزواج من شريفة من أشراف قريش تليق بمقامه الجديد فى ظل دين الله الذى يساوى بين الناس .

وكانت زينب بنت جحش قد هاجرت إلى الحبشة مع بنى جحش فرارا بدينها ، فغلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، فتذكر عبد الله بن جحش وأبا أحمد عبد بن جحش وكان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعرا وكانت عنده الفرعة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى . وتذكر الحركة الدائبة التى كانت تنبض بها الدار فتنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحوب(١)

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل :

— وما تبكى عليه من قُلٍّ بن قُلٍّ(٢) . هذا عمل ابن أخى ، هذا فرق جماعتنا وشتت أمرنا .

وهاجرت زينب بنت جحش إلى المدينة مع من هاجر من بنى جحش عقب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وراح

(١) التوجع (٢) القل : الواحد

شاعرهم أبو أحمد يصف هجرتهم فيقول :

لما رأتني أم أحمد غاديا ... بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول : فاما كنت لا بد فاعلا ... فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقم ... إلى الله يوما وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وترا(١) نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بني غَنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس تلحب(٢)
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا(٣)
كفوجين : أما منهما فموفق ... على الحق مهدى . وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبه وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخُيبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد ... فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمُتّ بأرحام إليهم قريبة ... ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرّب
فأي ابن أخت بعدنا يأمنكم ... وأية صهر بعد صهرىَ ترقب
ستعلم يوما أينا إذ تزايلوا (٤) ... وزُيّل أمر الناس للحق أصوب

وكانت زينب بيضاء سمينة من أتم نساء قريش وكانت معتزة بنسبها الرفيع ؛ فلما رآها زيد بن حارثة بعد قدومها إلى المدينة جاء إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — وقال :

— يا رسول الله اخطب عليّ .

— من ؟

---

(١) الوتر طلب الثأر
(٢) تلحب : طريق بين واضح
(٣) أوعبوا : اجتمعوا وكثروا
(٤) تفرقوا

ـــ زينب بنت جحش .

إنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهو عليه السلام يعلم اعتزازها بنسبها ، فقال له :

ـــ لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نسبا .

ـــ يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس عليّ فعلت .

ـــ إنها امرأة لسناء .

فذهب زيد إلى علي بن أبي طالب فحمله على أن يكلم له النبي — صلى الله عليه وسلم . فانطلق معه علي إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فكلمه فقال :

ـــ إني فاعل ذلك ومرسلك يا علي إلى أهلها لتكلمهم .

وذهب علي إلى عبد الله بن جحش يكلمه في أمر زواج زينب من زيد فاربد وجه عبد الله ، إنه كان يترقب أن يأتي ابن خاله محمد — صلى الله عليه وسلم — ليطلب منه زواج ابنة عمته زينب بنت جحش وما خطر له على قلب أن يبعث يطلب زواج زينب من مولاه ؛ فسخطت زينب وسخط أخوها عبد الله ، وعاد علي كرم الله وجهه إلى النبي عليه السلام فأخبره بكراهتها وكراهة أخيها لذلك .

وجاء عليه السلام إليها ليخطبها لمولاه فقالت :

ـــ لست بناكحته .

قال عليه الصلاة والسلام :

ـــ بل فانكحيه .

— يا رسول الله أوامر نفسى فانى خير منه حسبا .

فأنزل الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا(١) ».

فقالت زينب :

— رضيت .

وساق زيد إلى بنى جحش عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من التمر أعطاه ذلك كله رسول الله ، وبنى زيد بن حارثة مولى رسول الله عليه السلام بزينب بنت جحش سليلة أشرف بيت فى قريش من كانت تعتز بنسبها ، لتقرير حقيقة المساواة بين البشر وأن ليس لحر على عبد من فضل إلا بالتقوى .

---

(١) الأحزاب ٣٦.

كان كعب بن الأشرف رجلا من طيئ ثم أحد بنى نبهان ، وكانت أمه من بنى النضير ، وقد ناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء منذ هاجر إلى المدينة . فلما وقعت الحرب بين المسلمين وقريش عند ماء بدر وأيد الله المسلمين بنصره بدت العداوة على لسانه ، وقال حين بلغه مقتل سادات قريش :

ــ ويلكم أحق هذا ؟ أترون أن محمدا قتل هؤلاء الرجال وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها .

فلما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة بن ضبيرة السهمى وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبى العيص ابن أمية بن عبد شمس فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكى على أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش ، فقال :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم
لا تبعدوا إن الملوك تُصرَّع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد
ذى بهجة يأوى إليه الضيع

طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت   حمّال أثقال يسود ويربع (١)
ويقول أقوام أُسَرُّ بسخطهم   إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قُتِّلوا   ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة   أو عاش أعمى مُرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم   خشعوا لقتل أبي الحكيم وجُدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبّه   ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم   فى الناس يبنى الصالحات ويجمع

فرد عليه حسان بن ثابت ، وأجابت كعبا ميمونة بنت عبد الله فأجابها كعب بن الأشرف :

ألا فازجروا منكم سفيها لتسلموا   عن القول يأتى منه غير مقارب
أتشتمنى أن كنت أبكى بعبرة   لقوم أتانى ودهم غير كاذب
فانى لباك ما بقيت وذاكر   مآثر قوم مجدهم بالجباجب
لعمرى لقد كانت مُريدٌ بمعزل   عن الشر فاحتالت وجوه الثعالب
فحق مُريدٌ أن تجد أنوفهم   بشتمهم حَيَّىْ لؤى بن غالب
وهبت نصيبى من مريد لجعدر   وفاء وبيت الله بين الأخاشب

وعاد كعب بن الأشرف إلى المدينة ، يعلن فى حماقة ما قاله فى محمد عليه السلام فى مكة وما أنشده فى رثاء سادات قريش ، واستمر فى غيه فلم يكتف بالهجاء بل شبّب بأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس وثانى امرأة أعلنت إسلامها بعد الطاهرة خديجة أم المؤمنين . فقال :

---

(١) يربع : يأخذ الربع أى انه كان رئيسا ، لان الرئيس فى الجاهلية كان يأخذ ربع الغنيمة .

أراحل أنت لم تحـلل بمنقبـة ... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت ... من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها ... إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا ... والحبل منها متين غير منجذم(١)
إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها ... ولو تشاء شفت كعبا من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها ... أهل المحلة والإيفاء بالذمم
لم أدر شمسا بليل قبلها طلعت ... حتى تجلت لنا فى ليلة الظلم

وآذى كعب بن الأشرف الله ورسوله فقال عليه السلام :

— من لى بابن الأشرف ؟

فقال له محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل :

— أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله .

— فافعل إن قدرت على ذلك .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه ؛ فذكر ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدعاه فقال له :

— لم تركت الطعام والشراب ؟

— يا رسول الله ، قلت لك قولا لا أدرى هل أفين لك به أم لا .

— إنما عليك الجهد .

— يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول .

— قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك .

---

(١) منجذم : منقطع

فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش أحد بنى عبد الأشهل وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيسى ابن جبر ، فرأوا أن يقدموا إليه قبل أن يأتوه أبو نائلة سلكان ابن سلامة ليستدرجه ، فهو أخوه من الرضاعة وهو يطمئن إليه . فانطلق سلكان إلى حصن كعب وكانت الليلة مقمرة فهتف وكان حديث عهد بعُرس ، فوثب فى ملحفته فأخذته امرأته بناحيتها وقالت :

— إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة.

— إنه أبو نائلة ، لو وجدنى نائما ما أيقظنى .

— والله إنى لأعرف فى صوته الشر .

— لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب .

فنزل فتحدث مع سلكان ساعة وتناشدا شعرا وكان أبو نائلة يقول الشعر ، ثم قال :

— ويحك يا بن الأشرف ؟ إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك ، فاكتم عنى .

— أفعل .

— كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء فى بلاء ، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

— أنا ابن الأشرف . أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول .

— إنى قد أردت أن تبيعنا طعـــاما ونرهنك ونوثق لك

وتحسن فى ذلك .

— أترهنونى أبناءكم ؟

— لقد أردت أن تفضحنا : إن معى أصحابا لى على مثل رأيى وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة (السلاح) ما فيه وفاء .

وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها ؛ قال :

— إن فى الحلقة لوفاء .

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاح ، ثم ينطلقوا فيجتمعوا معهم إلى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال :

— انطلقوا على اسم الله . اللهم أعنهم .

ثم رجع — صلى الله عليه وسلم — إلى بيته وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب ، فهتفوا به فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قال سلكان :

— هل لك يا بن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز (١) فنتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟

— إن شئتم .

فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده فى فود رأسه ثم شم يده فقال :

— ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال :

---

(١) شعب العجوز بظاهر المدينة

– اضربوا عدو الله .

فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن عنهم شيئا ، فتذكر محمد بن مسلمة مغولا (١) فى سيفه حين رأى أسيافهم لا تغنى شيئا فأخذه وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وقد أوقدت عليه نار ، فوضعه ما بين سرته وعانته ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع كعب بن الأشرف يخبط فى دمه . وأصابت بعض أسيافهم الحارث بن أوس بن معاذ فجرح فى رأسه . فخرجوا حتى سلكوا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى ارتفعوا فى حرة (٢) العريض (٣)وقد أبطأ عليهم صاحبهم الحارث بن أوس وقد أضعفه نزف الدم ، فوقفوا له ساعة ثم أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه فجاءوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم – آخر الليل وهو قائم يصلى .

وخرج إليهم عليه السلام فأخبروه بقتل عدو الله ، فراح يضمد جرح صاحبهم وهو يستشعر راحة فقد قضى المسلمون على رجل أحمق يزهو بالخوض فى أعراض نساء مؤمنات .

ورجع رسول الله عليه السلام إلى أهله ورجعوا إلى أهلهم ، فأصبحوا فاذا بأسواق اليهود ودورهم قد ارتجت لمقتل كعب بن الأشرف ولم يبق فى المدينة يهودى إلا وهو يرتجف فرقا ويخاف على نفسه .

---

(١) المغول : السكين التى تكون فى السوط

(٢) الحرة : ارض فيها حجارة سود

(٣) العريض : وادى المدينة

كان عبد الله بن أبي بن سلول رأسا فى المدينة وكان من الخزرج وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته قال :

ــ هذا أمر قد توجه .

فأظهر الدخول فى الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق فى المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها ؛ بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله .

وكان القرآن الكريم ينزل ليبين حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع لذلك فساد عريض ، فهم أخطر على المجتمع المؤمن الناشئ من الأعداء السافرين . فقال الله تعالى فيهم : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير (١) » .

كان المنافقون يظهرون غير ما يبطنون وكانوا يلوذون باليهود ويقولون لهم : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . وكان هنالك رجال وأناس يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول وبنظم الشعر وكان الشعر ينتشر فى المدينة وفى قريش وفى القبائل انتشار الريح فكان ذلك يثير غضب المسلمين .

كان أبو عفك من بنى عمرو بن عوف وكان يهوديا قد بلغ عشرين ومائة وكان يصغى إلى الحوار الدائر بين أحبار اليهود

---

(١) البقرة ٨ — ٢٠

حول محمد عليه السلام ، فريق منهم يقول إنه النبي الذى بَشر به الأنبيـــاء وأن عليهم أن يتبعوه وفريق ينكر أن يبعث الله رسولا من غير بنى إسرائيل ويؤكد أن اتباع النبي العربى الذى يؤمن بعيسى وبحمل مريم الطاهر إنما هو إقرار منهم بأن آباءهم كانوا على ضلال لما أنكروا رسالة المسيح . وكان ذلك الجدل يثير أبا عفك ويحرك مكامن الخوف فى نفسه على دين اليهـود ، فراح يسب الإسلام ويحرض على رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، ويقول الشعر وكان فاحش القـــول بذئ اللسان ، فقال سالم ابن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدرا :

— على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه .

وانطلق سالم إلى الشيخ الفانى الذى كانت عداوة رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — تسرى فيه مسرى الدم فقتله ، فلما ذاع نبأ مقتل أبى عفك بين اليهود انخلعت قلوبهم رعبا وذهبت أنفسهم شعاعا وأغلقوا عليهم حصونهم ؛ بينا قامت العصماء بنت مروان زوج يزيد الخطمى وكانت امرأة من الأنصار تنشد الشعر وتعيب الإسلام وأهله وتؤنب الأنصار فى اتباعهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

نافقت العصماء لما قتل أبو عفك فراحت تهجو رسول الله عليه السلام وتهاجم المسلمين والإسلام وهى تحسب أنها فى منعة من أهلها فقد كان لها بنون خمسة رجال وكان بنو خطمة كثيرا عددهم وكانوا على الشرك ، وكان يستخفى باسلامه فيهم من أسلم خشية بطش الكفار .

وكان عمير بن عدى الخطمى ضرير البصر وكان قد أسلم وحسن إسلامه ، وكانت ثورة الحق تجتاحه كلما سمع شعر العصماء الذى تعيب فيه الإسلام وأهله . وكان يزيد فى حنقه أنها خطمية من رهطه فغدت تراوده فكرة أن يقتلها ليمحو ذلك العار الذى بات يستشعره كلما قرعت أذنيه كلمات هجوها لنبيه عليه السلام .

واستمرت العصماء بنت مروان فى غيها ولجت فى العداوة والخصام ، فثار الضرير الذى كان أول من أسلم من بنى خطمة وكان إمام قومه وقارئهم ، فمشى إليها فى جوف الليل وطعنها طعنة أزهقت روحها الخبيثة ولم يول الأدبار ، بل قام فى قومه يقول :

— يابنى خطمة أنا قتلت بنت مروان .

فاستبشر المؤمنون وخاف المنافقون وغضب الكافرون ولكن لم يحركوا ساكنا لما وجدوا أن الذين كانوا يخفون إسلامهم من بنى خطمة قد أعلنوه لما رأوا من عز الإسلام .

ومشى الضرير إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وأخبره أنه قتل العصماء . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— لا ينتطح فيها عنزان .

وسماه رسول الله عليه السلام البصير .

واستمرت الخصومات مشبوبة الأوار بين المسلمين واليهود فكان أهل الكتاب يقولون للمؤمنين :

— نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم .

فيقول المؤمنون :

— نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب ، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا .

وكان اليهود يعجبون للحجج التى يسوقها الأوس والخزرج ، إنهم كانوا قبل أن يقدم عليهم محمد عليه السلام لا يدرون ما الكتاب وما الإيمان ولا يعرفون عن رسل الله شيئا ، فاذا بهم بعد أن دخلوا فى الإسلام قد تفقهوا فى الدين وأوتوا العلم والحكمة والبيان فى بضع سنين . وأصبحوا يجادلون الأحبار المتفيقهين ويلزمونهم الحجة .

إن ما فعله محمد بن عبد الله فى المدينة يثير الدهشة ، فقد ألف بين قلوب متنافرة وأزال الجهل الذى ران على بصائر العرب آلاف السنين . فاذا بالأجلاف الذين كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب الأول فى إجلال وتوقير يصيرون ورثة العلم الذى فاض على الأفئدة لما وصلت الحقيقة إلى أعماق النفوس .

كانت أول مرة سمعوا فيها بمحمد بن عبد الله يوم أن جاءهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط يسألانهم عن محمد ، فقالوا لهما : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبى وإن لم يفعل

فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

وأنزل الله تعالى سورة أصحاب الكهف فيها خبر الفتية الذين ذهبوا فى الدهر ، وخبر الرجل الطواف ذى القرنين ، وأنزل فى الروح : «قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(١)» .

لقد قرئت عليهم سورة أصحاب الكهف وما أنزل فى الرجل الطواف والروح فانشرحت قلوب بعض اليهود للاسلام : وقام جدال شديد بين الذين قالوا بأنه نبى مرسل وبين الذين زعموا أنه متقول على الله . وكان محور الجدال أنه لم يأت بخبر عن الروح .

فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة قالت أحبار يهود :

— يا محمد أرأيت قولك : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . إيانا تريد أم قومك ؟

— كلا :

— فانك تتلو فيما جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شئ .

— إنها فى علم الله قليل وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك : «ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت

(١) الاسراء ٨٥

كلمات الله إن الله عزيز حكيم(١) » .

وآمن نفر من يهود فاشتد الحوار بين المؤمنين من أهل الكتاب الأول والكافرين بمحمد وبما جاء به ، وراحت المدينة تنبض بالمناقشات الدائرة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبين أحبار اليهود المكذبين ، فلما أذن بلال لأول مرة من مسجد الرسول عليه السلام هرع إليه يهود وقالوا :

— يا محمد قد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم . فان كنت تدعى النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء والرسل من قبلك ، فمن أين لك صياح كصياح البعير ، فما أقبح من صوت ولا أسمج من كفر .

وأعرض عنهم رسول الله عليه السلام ، واستمر الأذان يجلجل خمس مرات فى اليوم فى أنحاء المدينة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فزاد ذلك فى حنقهم وقالوا مستهزئين إذا ما نادى منادى رسول الله عليه السلام إلى الصلاة :

— قوموا صلوا اركعوا .

فيقومون ليقلدوا المسلمين فى صلاتهم وهم يضحكون ، فانزل الله تعالى : « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت

(١) لقمان ٢٧

أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل(١) » .

وكانت وقعة بدر بين المسلمين وقريش ونصر الله دينه وقتل صناديد مكة وساداتها ، وعاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة بالأسرى مقرنين فعاد الجدال بين يهود ، قال فريق منهم : إنه النبي الذى نجده فى التوراة وأننا نظلم أنفسنا بعداوته . وقال فريق آخر : ماكان الله ليبعث رسولا من الأميين . كأنما قد كتب الله على نفسه عهدا ألا يبعث رسلا إلا من بنى إسرائيل إلى بنى إسرائيل لكأنما كانوا هم وحدهم من خلقه ومن عداهم من خلق الشياطين !

ونشب الحوار بين الذين قالوا إنه النبي المنتظر ، قالت طائفة : إن النصر حليفه على الدوام وهذه علامة من علاماته وإنهم سيعلنون على الملأ إسلامهم . وقالت طائفة : إنهم سينتظرون وقعة ثانية بين محمد بن عبد الله وبين الكافرين فاذا ما انتصر عليهم تارة أخرى كان ذلك تأكيدا على أنه النبي الذى بشرت به الأنبياء ، من تخفق فوق جيوشه ألوية النصر المبين .

وكان أشراف اليهود أكثر الناس عداوة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وللمؤمنين ، فقد ناصبوه عليه السلام العداء مذ وطئت قدماه أرض يثرب ، فقد ضايقهم أنه آمن بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر ، فكان ذلك الإيمان تسفيها لأحلام آبائهم الذين أصروا على إنكار رسالة السيد المسيح ، وقد رأوا فى اتباعه إقرارا منهم بأن آباءهم كانوا فى الجهالة يعمهون ، فراحوا

(١) المائدة ٥٨ — ٦٠

يحاولون أن يقنعوه عليه السلام بأن يتهود ليخرجوا من مأزق الاعتراف برسالة عيسى بن مريم .

ولم يصغ عليه السلام للاغراء الذى كانوا يقدمونه إليه فى كل صورة ، فلما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه عليه السلام ، أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف ورافع بن أبى رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق وكنانة ابن الربيع بن أبى الحقيق فقالوا :

— يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

كانوا يريدون فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم(١) » ..

وفجر انتصاره عليه السلام فى بدر حقد أعدائه الذين أبوا

(١) البقرة ١٤٢ — ١٤٣

أن يؤمنوا برسالته ؛ فانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة يرثي قتلى بدر ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، فكان قتله جزاء وفاقا على وقاحته . وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحاربوه فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمته .

وظلت المدينة تخفق بالأحداث وبالحوار الدائر بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين وبين أهل الكتاب الذين لجوا في الخصام فأنزل الله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد(١) » .

---

(١) الحج ١٩ — ٢٤

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله ابن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية والحارث ابن هشام والأسود بن عبد المطلب وجبير بن مطعم وحويطب بن عبد العزى فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا :

— يا معشر قريش ، إن محمــــدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا .

فقال أبو سفيان :

— وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

— نعم .

— فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي .

فلما أجمعوا على المسير قالوا :

— نسير فى العرب فنستنصرهم فان عبدة مناة غير متخلفين عنا . هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش .

فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون فىالعر ب

يدعونهم إلى نصرهم ، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب بن الزبعرى وأبا عزة الجمحى ، فأبى أبو عزة أن يسير وقال :

— منّ على محمد يوم بدر وحلفت ألا أظاهر عليه عدوا أبدا .

فمشى إليه صفوان بن أمية فقال :

— اخرج .

فأبى وقال :

— عاهدت محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبدا وأنا أفى بما عاهدته عليه .

فظل صفوان به حتى خرج يسير فى تهامة ويدعو بنى كنانة ويقول :

إيه بنى عبد مناة الرزام(١) أنتم حماة وأبوكم حام

لا تسلمونى لا يحل إسلام لا يعدونى نصركم بعد عام

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا مالِ (٢) ، مال الحسب المقدّم

أنشد ذا القربى وذا التذمّم

(١) الرزام : الذين يثبتون فى مكانهم وقت القتال .

(٢) يا مال : أراد يا مالك فحذف الكاف للترخيم ، وذو التذمم : هو الذى له ذمام أى عهد .

من كان ذا رُحْمٍ ومن لم يرحم
الحِلف وسط البلد المُحرم
عند حطيم الكعبة المُعظّم

وخرج النفر فألبوا العرب وجمعوا وبلغوا ثقيفا فخرجوا للغزو ، فلما أجمعوا المسير وتأليب من كان معهم من العرب وحضروا ، واختلفت قريش فى إخراج النساء معهم قال صفوان ابن أمية :

ــ اخرجوا بالظعن (١) فأنا أول من فعل ، فانه أقمن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر ، فان العهد حديث ونحن قوم موتورون مستميتون لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه .

فقال عكرمة بن أبى جهل :

ــ أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه .

وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى فى ذلك نوفل بن معاوية الدِّيلى فقال :

ــ يا معشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرِّضوا حُرمَكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدَّبرة(٢) لهم فتفتضحوا فى نسائكم .

فقال صفوان :

ــ لا كان غير هذا أبدا !

فجاء نوفل إلى أبى سفيان بن حرب فقال له تلك المقالة ،

(١) الظعن : جمع ظعينة وهى المرأة فى الهودج . (٢) العاقبة .

فصاحت هند بنت عتبة :

— إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ، نعم تخرج فنشهد القتال فقد ردت القيان من الجحفة فى سفرهم إلى بدر ، فقتلت الأحبة يومئذ .

فقال أبو سفيان :

— لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ، ما فعلتْ فعلتُ .

ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها ، فقال له :

— اخرج مع الناس ، فان أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء فى الهوادج التماس الحفيظة وألا يفروا . فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس بامرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برزة بنت مسعود الثقفى والبغوم بنت المغدل من كنانة ، وخرج طلحة بن أبى طلحة بامرأته سلافة بنت سعد بن شهيد وهى من الأوس وهى أم بنيه مسافع والحارث وكلاب والجلاس بن طلحة ، وخرج عكرمة بن أبى جهل بامرأته أم حكيم بنت الحارث ابن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد ابن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه بن الحجاج ، وخرجت خُناس بنت مالك إحدى نساء بنى مالك

ابن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير من بني عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رملة بنت طارق بن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن علي ابن ربيعة بن عبد العزم بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته أم حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عويف بامرأته قتيلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو وأخوه جابر مسك الذئب بأمهما الدغنية ، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وخرج سفيان بن عويف بعشرة من ولده وحشدت بنو كنانة .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت :

— ويهاً أبا دسمة اشف واستشف .

وخرجت قريش كلها ومن اجتمع إليها من القبائل من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحد يحمله طلحة بن أبي طلحة ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل وكان فيهم من ثقيف مائة رجل . وخرجوا بعدة وسلاح كثير وقادوا مائتي فرس وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير .

وقعد العباس بن عبد المطلب في مكة بعد أن راودوه على الخروج معهم فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ولم يساعدهم بشيء ، فلما أجمعوا على المسير كتب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتابا وختمه واستأجر رجلا من بني غفار وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ، فراح الغفاري ينهب الأرض بفرسه حتى قدم المدينة فلم يجد رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — بها وعلم أنه بقباء ، فانطلق إلى هناك فوجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب ففك ختمه ودفعه إلى أبي بن كعب فغدا يقرأ :

— إن قريشا قد اجتمعت للمسير إليك ، فما كنت صانعا إذا حلوا بك فاصنعه . وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وقد أوعبوا من السلاح .

واستكتم نبي الإسلام عليه السلام أبيا ما فيه . ودخل منزل سعد بن الربيع فقال :

— أفي البيت أحد ؟

— لا فتكلم بحاجتك .

فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب .

فجعل سعد يقول :

— يا رسول الله والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير .

وانصرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة وقد استكتم سعد بن الربيع الخبر ، فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — من منزله خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت :

— ما قال لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟

— ما لك ولذاك ؟ لا أم لك .

— كنت أستمع عليكم .

وأخبرت سعد الخبر ، فاسترجع وقال :

— لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — تكلم بحاجتك .

ثم أخذ بِجُمْع لمتها ، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالجسر فقال :

— يا رسول الله إن امرأتى سألتنى عما قلت فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم . ثم جاءت بالحديث كله ، فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شئ فتظن أنى أفشيت سرك .

— خل سبيلها .

وأرجفت يهود المدينة والمنافقون وقالوا :

— ما جاء محمدا شئ يحبه .

وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر من خزاعة ساروا من مكة أربعا فوافوا قريشا وقد عسكروا بذى طوى ، فأخبروا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم انصرفوا ، ولقوا قريشا ببطن رابغ وهو أربع ليال من المدينة فنكبوا عن قريش .

فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان :

— أحلف بالله أنهم جاءوا محمدا فخبّروه بمسيرنا وعددنا وحذروه منا ، فهم الآن يلزمون صياصيهم ، فما أرانا نصيب منهم شيئا فى وجهنا .

قرر أبو سفيان أن محمدا عليه السلام والذين معه قد دخلوا حصونهم لما بلغهم خبر مسير قريش ، فحرك ذلك خيبة الأمل في نفوس المشركين فقال صفوان بن أمية :

— إن لم يُصحِروا (١) لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يختارونها أبدا ، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل على وِترْ عندهم ولاوتر لهم عندنا .

وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلا من الأوس حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي — صلى الله عليه وسلم — المدينة يحرض قريش ويُعلمها أنها على الحق وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها : فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها وكان يقول لقريش :

— إنى لو قدمت على قومى لم يختلف عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء معى نفر منهم خمسون رجلا .

فصدقوه بما قال وطمعوا في نصره .

وخرج النساء معهن الدفوف يحرضن الرجال ويذكرنهم قتلى بدر في كل منزل ، وجعلت قريش تنزل كل منهل ينحرون ما نحروا من الجزر مما كانوا جمعوا من العين ويتقوّون به في مسيرهم ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال .

ونظرت هنـــد بنت عتبة إلى قبر آمنة بنت وهب فقالت :

(١) أصحروا : خرجوا الى الصحراء .

لزوجها أبي سفيان :

— إنكم قد خرجتم بالظعن معكم ونحن نخاف على نسائنا فتعالوا ننبش قبر أم محمد فان النساء عورة ، فان يصب من نسائكم أحدا قلتم : هذه رمة أمك ، فان كان برا بأمه — كما يزعم — فلعمرى لنفادينهم برمة أمه . وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمرى ليفدين رمة أمه بمال كثير إن كان بها برا .

فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأى من قريش فى ذلك فقالوا :

— لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

وكانت قريش بذى الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما أصبحوا بذى الحليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء (١) .

وبعث النبي — صلى الله عليه وسلم — عينين له آنسا ومؤنسا ابنى فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا الوطاء ، وأتيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبراه .

وكان المسلمون قد ازدرعوا الوادى وكان أهله بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وخيولهم حتى تركوا الوادى ليس به خضراء .

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض .

وبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم لما نزلوا الوادى واطمأنوا ، فدخل فيهم وحزر ونظر إلى جميع ما يريد وكان بعثه سرا وقال له :

— إذا رجعت فلا تخبرنى بين أحد من المسلمين إلا أن ترى فى القوم قِلَّة .

فرجع إليه فأخبره خاليا وقال له :

— رأيت عددا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والخيل مائتى فرس ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع .

— هل رأيت ظعنا ؟

— نعم . رأيت النساء معهن الدفوف والأكبار (الطبول) ..

— أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر ، هكذا جاءنى خبرهم . لا تذكر من شأنهم حرفا . حسبنا الله ونعم الوكيل . اللهم بك أجول وبك أصول !

وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة فى عدة منهم ليلة الجمعة عليهم السلاح فى المسجد بباب النبي — صلى الله عليه وسلم — خوفا من تبييت المشركين ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا . ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رؤيا ليلة الجمعة شغلت كل تفكيره .

وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى الوادى إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا !!

فى أثره ، فوقف لهم على نشز من الحرة فرشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولوا جاء إلى مزرعته بأدنى الوادى فاستخرج سيفا كان له ودرع حديد كان له دفنا فى ناحية المزرعة وخرج بهما يعدو حتى أتى بنى عبد الأشهل فخبر قومه بما لقى .

واجتمع المسلمون لصلاة الجمعة ووقف رسول الله عليه السلام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إنى رأيت فى منامى رؤيا ؛ رأيت كأنى فى درع حصينة ، ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انفصم من عند ظبته ، ورأيت بقرا تذبح ؛ ورأيت كأنى مردف كبشا .

فقال الناس :

— يا رسول الله فما أولتها ؟

— أما الدرع الحصينة فالمدينة ، وأما انفصام سيفى فقتل رجل من أهل بيتى ، وأما البقر المذبح فقتلى فى أصحابى ، وأما أنى مردف كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

وقضيت صلاة الجمعة والتف المهاجرون والأنصار برسول الله — صلى الله عليه وآله — فقال :

— أشيروا على .

ورأى — صلى الله عليه وسلم — ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ورسول الله عليه السلام يحب أن يوافق على مثل ما رأى وعلى ما عبر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبى فقال :

— يا رسول الله كنا نقاتل فى الجاهلية فى هذه المدينة ونجعل

النساء والذرارى فى هذه الصياصى ونجعل معهم الحجارة : والله لربما مكث الولدان انشهرا ينقلون الحجارة إعدادا لعدونا ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام ونقاتل باسيافنا فى السكك .

يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا وما دخل علينا قط إلا أصبناه ، فدعهم يا رسول الله فانهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا خاسرين مقلوبين لم ينالوا خيرا ، يا رسول الله أطعنى فى هذا الأمر واعلم أنى ورثت هذا الرأى من أكابر قومى وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة .

فكان رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع رأى ابن أبى ؛ وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— امكثوا فى المدينة واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام ، فان دُخل علينا قاتلناهم فى الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، ورُموا من فوق الصياصى والآطام .

فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا :

— اخرج بنا إلى عدونا .

إنهم رغبوا فى الشهادة وأحبوا لقاء العدو . وقال رجال من أهل الفطنة وأهل السن منهم حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج :

— إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج

إليهم جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفَّرك الله بهم ونحن اليوم بشر كثير . وكنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا هذه .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتساومون كأنهم الفحول :

وقال مالك بن سنان أبو أبى سعيد الخدرى :

— يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسنيين . إما أن يظفِّرنا الله بهم فهذا الذى نريد فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة والله يا رسول الله ما نبالى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير .

وقال حمزة بن عبد المطلب وكان صائما :

— لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفى خارجا من المدينة .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بنى سالم :

— يا رسول الله أنا أشهد أن البقر المذبَّح قتلى من أصحابك وأنى منهم ، فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالله الذى لا إله إلا هو لأدخلنها .

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

— بم ؟

— إنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف .

— صدقت .

وقال إياس بن أوس بن عتيك :

— يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذَّبح ، نرجو يا رسول الله أن نذبح فى القوم ويُذْبح فينا فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار ، مع أنى يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فتقول حصرنا محمدا فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه جرأة لقريش وقد وطئوُا سعفنا ؛ فاذا لم نذب عن عرضنا فلم نذَّرع ؟ وقد كنا يا رسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا فنذبهم عنا ، فنحن اليوم أحق إذ أمدنا الله بك وعرفنا مصيرنا ألا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

وقام خيثمة ، أبو سعد بن خيثمة ، فقال :

— يا رسول الله إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومن اتبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا ، ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا . وعسى الله أن يُظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى فهى الشهادة .

لقد أخطأتنى وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا ، لقد بلغ من حرصى أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة ، وقد كنت حريصا على الشهادة . وقد رأيت ابنى البارحة

فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ودق عظمى وأحببت لقاء ربى فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة .

فدعا له رسول الله بذلك .

وقال أنس بن قتادة :

— يا رسول الله هى إحدى الحسنيين ، وإما الغنيمة والظفر بقتلهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— إنى أخاف عليكم الهزيمة .

فأبوا إلا الخروج والجهاد ، فوعظهم عليه السلام وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — بالشخوص إلى عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ثم صلى العصر بالناس وقد حُشد الناس وحضر أهل العوالى ورفعوا النساء إلى الآطام ، فحضرت بنو عمرو ابن عوف بلفّها ولفيفها والنبيت (١)ولقيفها وتلبسوا السلاح ، فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيته ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه ولبساه .

وصفّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه ،

---

(١) اللف : المختلط   البنيت : الناشئة .

فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا لهم :

— قلتم لرسول الله ما قلتم واستكرهتموه على الخروج والأمر يتنزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه وما رأيتم فيه له هوى أو أربا فأطيعوه .

فبينما القوم على ذلك من الأمر وبعض القوم يقول :

— القول ما قال سعد .

وبعضهم على البصيرة على الشخوص وبعضهم للخروج كاره ، إذ خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله — قد لبس لأمته (قد لبس الدرع)فأظهرها وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدم كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله —صلى الله عليه وسلم ، واعتم وتقلد السيف . فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، ندموا جميعا على ما صنعوا وقال الذين يلحون على رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك .

فقال عليه السلام :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

اختلفوا فى الخروج من المدينة والمقام بها ، وكره النبي صلى الله عليه وسلم الخروج ثم خرج على مضض . ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج ، ثم عزم رسول الله عليه السلام على الخروج بعد أن لبس لأمته ، فتفرقت الكلمة بينا كانت الكلمة يوم بدر

واحدة لكأنما قد اجتمع المسلمون يوم ذاك على قلب رجل واحد ، ترى هل ينتصرون فى هذه الغزوة كما انتصروا يوم بدر والنصر معقود بالعزم والجد والبصيرة فى الحرب واتفاق الكلمة ؟

وكان مالك بن عمرو النجارى مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز صلى عليه ثم دعا بفرسه ثم قال للمسلمين :

— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .

وركب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أُحد .

التذييل

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « الله » : ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى .

وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى .

ويقول علماء المقابلة بين الأديان : إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهى :

دور التعدد .

ودور التمييز والترجيح .

ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك فى هذا

الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التميز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها ؛ إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب ، وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بارادة الله وحكمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة

الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية .

والرأى الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية يأتى أحيانا كثيرة بعد اعتقاد الوحدانية ، ويعللون ظهور الثنائية بعد الوحدانية بأن الإنسان يترقى فى هذا الطور فيحاول تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة فى عقيدته لأنه لا يزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيغ التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها . فلا تكون الثنائية بعد الوحدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتى بعد جميع هذه الأطوار توفيقا بين النقائص والضرورات وإثباتا لوجود الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان .

واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، فمن قائل إن الأساطير هى أصل الدين بين الهمج ، ومن قائل إن ملكة الاستحياء هى أصل الاعتقاد بالأرباب ، ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية ، ويعلل آخرون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من قوى الطبيعة والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات فى شدته وبلواه .

يقول الفيلسوف كونت : « إن الدين عبادة الإنسانية » ؛ ويقول سنيكا : « إن الدين معرفة الله والتشبه به » ؛ ويقول الفيلسوف الألمانى كنت : « ينحصر الدين فى اعتقادنا بأن كل واجباتنا أوامر إلهية » ، ويقرر إسكندر باين : « أن الدين عاطفة يكونها الانفعال الهادئ مقرونا بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة» ، ويقول هكسلى : « إن الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » .

ورأى بعض المفكرين أن الوجود البشرى إن هو إلا حوار مع الله . وجعل بعض المفكرين من الروح الدينية عرضا من أعراض طفولة الشعوب أو قصور العقل البشرى أو انحراف الشخصية الفردية ؛ وعجز المفكرون والفلاسفة عن تقديم تعليل يتفق عليه عن أصل العقيدة الدينية وأصل الباعث عليها .

وقد أخذ الأستاذ العقاد فكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم والصناعات من قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم حتى وصلت إلى الوحدانية ، وهذا القول خاطئ من وجهة النظر الإسلامية ، فهو يعتمد على فكرة أن الله من خلق الإنسان ، وينفى عنه الثبات .

يقول القرآن الكريم إن الله خلق آدم وأن آدم كان على علم : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم

صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون(١) » . فتكون الوحدانية ومعرفة الله هى الطور الأول من الأدوار التى مرت بها عقائد الشعوب حسب ما يقرره القرآن المجيد .

كان آدم على علم بالله بل كان أكثر البشر معرفة به ، فقد جرى بينه وبين خالقه حوار مباشر دون وساطة ودون حجب : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٢)» .

ولم تنقطع صلة آدم بالله عقب هبوطه إلى الأرض بل اصطفاه ربه ليبلغ بنيه حقيقة الحق ، فلم يعرفوا إلا إلها واحدا لا شريك له ولم يتخذوا أربابا بالعشرات كما يزعم علماء المقابلة بين الأديان الذين يدحض نظريتهم واقع التاريخ .

فلو كانت نظرية النمو الدينى صحيحة لبدأت العبادة بعبادة أرباب متفرقين ، ثم بانتصار رب من الأرباب وبدء دور التمييز والترجيح ، ثم ترتقى البشرية وتشيع المعرفة ويتعذر على العقل قبول الخرافات ، ويأتى عصر النور الإلهى ولا تكون ردة بعده

---

(١) البقرة ٣٠ — ٣٣ . (٢) البقرة ٣٤ — ٣٦ .

أبدا . ولكن الدارس للتاريخ الدينى للبشرية يجد أن هذا التسلسل الذى يحاول أن يمنطقه علماء الأديان لم يكن له مكان فى تاريخ البشرية الطويل ، فلو أننا تركنا مسألة خلق آدم وأن آدم كان على علم ، ولو لم نعترف بأن إدريس الحفيد السابع لآدم قد نادى بالتوحيد ، وأنكرنا رسالة نوح مع المنكرين ، وسلمنا بأن إبراهيم الخليل لم يدع إلى الإسلام ولم يعرف الله الواحد القهار ولم يدع إلى عبادته وحده ، ولم نعترف مثلهم إلا بما نقش على الحجر أو وجد مكتوبا على ورق البردى ، وتوغلنا معا فى جوف الزمن حتى نصل إلى فجر الضمير الذى تكون فى مصر فى زمن الفراعين ، فاننا نجد أن أخناتون قد عرف التوحيد ، فما إن تولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى ما يتبعه الكهنة من أساليب ، وأعلن فى شجاعة أن ديانة المصريين وثنية وأنكر الآلهة جميعا إلا إلها واحدا لا شريك له هو « آتون » ، وهو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وأن كل ما فى الشمس من مجد ملتهب إن هو إلا رمز للقدرة الغائبة التى لا تراها العيون .

وحرم أخناتون رسم صور للاله « آتون » فهو يرى أن إلهه الحق لا صورة له . وراح يناجى ربه قائلا :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !
أى « آتون » الحى .. مبدأ الحياة .
فاذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى .
ملأت الأرض كلها بجمالك .
إنك جميل ، عظيم .. براق .. عال فوق كل الرءوس !

أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت !
وإنك تربطها جميعا برباط حبك !
ومهما بعدت فان نورك يغمر الأرض !
ومهما علوت فان آثار قدميك هي النهار !
ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق .

هذا هو أخناتون وهذا هو توحيده منذ فجر التاريخ ، فلو كانت نظرية ارتقاء الإنسان فى العقائد كارتقائه فى العلوم والصناعات صحيحة ، ولو كان قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب حتى وصلت إلى دور التوحيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لحق على البشرية ألا ترتد إلى عبادة أرباب متفرقين بعد أن اهتدت إلى الإله الواحد . ولكن الواقع التاريخى يكذب هذه المزاعم كلها ، فقد كانت البشرية تعرف التوحيد ثم تعود إلى الشرك ثم التوحيد فالشرك . والقرآن الكريم يوضح هذا التذبذب بين التوحيد والشرك أبين توضيح : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون(١) » ، « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكن أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل

(١) الحديد : ١٦ .

مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين(١)» ، « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى(٢) » ، « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحبون . بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون . قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يُنذَرون(١) » .

فالقرآن الكريم يكذب نظرية ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم ، ويؤكد أن القائلين بمرور البشرية بأطوار ثلاثة هى التعدد والتميز والترجيح والوحدانية قد جافاهم التوفيق ، فالأصل التوحيد ثم طول الأمد فقسوة القلوب فارسال رسول يوحى إليه أنه لا إله إلا الله فيدعو قومه إلى التوحيد ويقضى على الخرافات والأساطير ، فيطول على الناس العهد فيتخذون آلهة فى الأرض وفى السماء ويشركون برب العالمين ، فيأتيهم ذكر من ربهم فيعودون إلى الإيمان باله واحد فى السماء والأرض المستعان على ما يصفون .

إنها فى نظر الإسلام دورة : وحدانية فشرك بالله ، سواء أكان ذلك الشرك تعدد الأرباب أو ثنائية فى الاعتقاد بوجود إله

(١) القصص ٤٣ — ٤٥ . (٢) طه ٨٦ .

(٣) الانبياء ٤٢ — ٤٥ .

للخير وإله للشر . فارسال رسول إلى الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم لينير صدورهم بنور التوحيد ، فطول العهد ، فردة إلى الشرك المقيت ، فارسال رسول بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وتاريخ البشرية سواء أكان التاريخ الديني الذى جاء فى الكتب السماوية ، أو التاريخ الذى نقش على الحجارة أو كتب بالخط المسمارى على الطين ثم جفف ، أو دون على ورق البردى أو الرقاق أو سعف النخيل ، يؤيد الحقيقة القرآنية كل التأييد ويسخر من الزعم الذى وصل إليه من عرفوا بعلماء المقارنة بين الأديان من أن البشرية قد مرت بأطوار ثلاثة قبل أن تبلغ نضج التوحيد .

يقرر القرآن أن آدم كان على علم وأن الله اصطفاه ليبين لبنيه أن الله واحد لا شريك له ، فلما طال على بنيه العهد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه من مطعم شهى ومنظر بهى ولا عالم وراء هذا المحسوس ، فقست قلوبهم فأرسل إليهم إدريس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وكانت رسالة إدريس أول خطوة على الطريق الطويل الذى ستقطعه الرسالات لتأكيد وحدانية الله على مر العصور .

وعرف الناس التوحيد والبعث والخلود ثم ارتدوا إلى الظلمات بعد النور ، فأرسل الله رسله لنزيل الغشاوات التى رانت على القلوب لتنبلج فى الصدور أنوار الحقيقة : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا

مما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (١)» .

وقد عرف الناس الإيمان والإلحاد منذ بدء الخليقة ، عرفوا الكمال والحرام والحلال والعرش والملائكة واللوح والقلم والجنة والنار ، ثم لما طال عليهم الأمد قالوا إن أنهار الجنة وطيورها وثمارها إن هى إلا ترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم ، وإن سلاسل النار وأغلالها إن هى إلا خزى ونكال وترهيبات للعوام بما ينزجر عنه طباعهم .

وقد عرف الصابئة الأولى عاذيمون وهرمس وهما شيث وإدريس عليهما السلام ، فلما طال عليهم الأمد قالوا بحدود وأحكام عقلية أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحى ، ثم أنكروا الوحى والرسالة فقالوا إن الأنبياء أمثالنا فى النوع وأشكالنا فى الصورة ويشاركوننا فى المادة ويأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ؟ وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ؟« ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون(٢)» .

(١) ابراهيم ٩ — ١٢ . (٢) المؤمنون ٣٤ .

وقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية :

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها وهى هياكلها ؛ فلكل روحانى هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل — الذى اختص به ، نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره .

وسموا الهيكل أربابا ، وربما سموها آباء والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر ؛ فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات فى المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان .

ثم قد تكون التأثيرات الكلية صادرة عن « روحانى كلى » ، وقد تكون جزئية صادرة عن « روحانى جزئى » ، فمع جنس المطر ملك ومع كل قطرة ملك .

ومنها مدبرات « الآثار العلوية » الظاهرة فى الجو : مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ؛ ومما يحدث فى الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ؛ ومما يحدث فى الأرض مثل الزلازل والمياه والأبخرة .

ومنها « متوسطات القوى » السارية فى جميع الموجودات ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات ، حتى لا نرى موجودا ما خاليا من قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

تمثل هذا التفكير تحول الإنسان الأول من عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة الملائكة والكواكب والأجرام السماوية وبعض ظواهر الطبيعة ، بعد أن خدع نفسه بقوله إن الواجب الإقرار بالعجز عن الوصول إلى جلال الله ، وإنما يقترب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة .

وقد انقسم أهل الأهواء والنحل منذ بدء التاريخ إلى طبيعيين دهريين قد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه ، وإلى فلاسفة إلهيين ترقوا بالتحصيل عن المحسوس وأثبتوا المعقول ولكنهم لا يقولون بحدود وأحكام وشرائع ويؤمنون بأن الشرائع والحلال والحرام مسائل وضعية فيها مصلحة الناس ، وإلى صابئة يقولون بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام ولا يقولون بالشريعة التى أتى بها رسل الله وأنبياؤه .

كانت رسالة إدريس دعوة إلى عبادة الله ، إلى العودة إلى الصراط المستقيم ، إلى الوحدانية بعد الشرك بالله ؛ فلما طال على الناس العهد عبدوا الملائكة والكواكب واتخذوا لها أصناما ترمز إليهم ، فأرسل الله إليهم نوحا : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ؛ يغفر لكم من ذنوبكم

ويؤخركم إلى أجل مسمى .. (١)» ، « ولقدأرسلنانوحا إلىقومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين .(٢)» ، «ولقدأرسلنانوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون. ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين (٣) » .

دعوة إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده قبل أن تقوم مملكة آشور ومملكة بابل فى بلاد ما بين النهرين ، وقبل أن يزعم الملوك أن الملكية قد نزلت من السماء ، وقبل أن يجلس الملوك على العرش تشبها بالله وعرش الله ! دعوة مبكرة إلى الوحدانية تدحض مزاعم

---

(١) نوح ١ — ٤ . (٢) المؤمنون ٢٣ — ٢٥ .

(٣) هود ٢٥ — ٣١ .

القائلين بترقى الإنسان فى العبادة ترقيه فى العلوم والصناعات، وتكذب زعم علماء المقابلة بين الأديان الذين حسبوا أن الحضارة البشرية مد مطرد لا تعتوره نكسات ، فقالوا إن البشرية قد مرت بأطوار النمو الدينى حتى بلغت رشد الإيمان باله واحد قهار .

وطال على الناس العهد فقست قلوبهم فعادوا إلى عبادة الملائكة والكواكب والنجوم واتخذوا من دون الله أربابا ، فأرسل الله إليهم أخاهم هودا ليعيدهم إلى الصراط المستقيم : « وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (١) » .

وعرفت البشرية التوحيد مرة أخرى ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فارتدوا إلى الشرك وعبادة الأصنام التى اتخذوها رموزا للملائكة أو الكواكب السيارة أو الظواهر الطبيعية التى كانت تنزل الرعب فى قلوبهم أو يأملون منها الخير العميم .

ولما كانت سنة الله سبحانه وتعالى أن يرسل الرسل إلى عباده بعد أن تقسو قلوبهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقد أرسل صالحا إلى قومه : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم

---

(١) الأعراف ٦٥ — ٦٩ .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين (١) » .

كانت الدعوات كلها تستهدف عودة البشرية إلى عبادة الله وحده ، وقد كادت أن تكون عبارات الدعوة واحدة ، فنوح عليه السلام يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وهود يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وكذلك كانت دعوة صالح . ولم يتخذ أحد منهم اسما للدين الذى يدعو إليه لأن البشرية لم تكن قد تفرقت فى الدين إلى مذاهب ، ولم يتخذ المشركون لأديانهم أسماء يميزون دياناتهم بها فقد كانوا يؤمنون أنهم يتقربون إلى الله بالمتوسطات المقربين إليه . أما فى زمن إبراهيم الخليل فقد أطلق على أديان الكفر أسماء فعرفت عبادة نانا وهى عبادة القمر ، وعبادة مردوخ وهى عبادة كوكب المشترى ، وعبادة شماش وهى عبادة الشمس ، ثم أطلقت أسماء على عبادات الشرك فكان لا بد من إطلاق اسم على دين الله ، فكان الإسلام ذلك الاسم منذ رسالة إبراهيم عليه السلام ، وقد أطلق بعد ذلك على كل عبادة تدعو إلى التوحيد : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا

(١) الاعراف ٧٣ — ٧٤ .

ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (١)» .

وكانت دعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يقيمان القواعد من البيت أن يجعلهما الله مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (٢)» .

وأكد القرآن الكريم أن من يرغب عن ملة إبراهيم إنما يسفه نفسه . وأن بنيه ويعقوب (إسرائيل) كانوا مسلمين : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون(٣)» .

وعبدت الشمس قبل إبراهيم الخليل وعبدت من بعده فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر وفى اليمن وفى كل بقاع الأرض التى كانت مأهولة بالسكان فى ذلك الزمان ، وهذه حقيقة لا تتفق مع ما يقول به علماء المقابلة بين الأديان من أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم ولا فى جميع الأديان ، وأن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها

(١) الحج ٧٨ .   (٢) البقرة ١٢٨ .
(٣) البقرة ١٣٠ — ١٣٣ .

الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فكانت الشمس هى أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزا للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى ، فهى القنطرة الأخيرة بين العدوتين : عدوة التعديد وعدوة التوحيد.

ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزا للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح ، فتعلمه الإنسان من الديانات شيئا فشيئا حتى بلغ بالقوة الإلهية نهاية التنزيه .

وكان الله باللغة الآرامية « الإيل « فسمى إبراهيم ابنه البكر إسماعيل أى من سمع الله لك فيه ، وسمى حفيده إسرائيل ، ونسبت مدينة بابل إليه باب إيل . ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن الله : « ويبدو لنا هذا الترقى الدينى من ترقى العقل فى تفسير كلمة الإله ... فكلمة « إيل » بالآرامية مرادفة لمعنى القوى أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الإيل بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو للبطولة المطلقة ، كما نميز عالما بكلمة العالم مع التعريف ، لنقول إنه العالم دون سواه » .

أخذ الأستاذ العقاد بنظرية الترقى الدينى عن علماء المقابلة بين الأديان ، وإن الدارس لتاريخ البشرية الدينى ليجد فى يسر أن هذه النظرية محض خيال ، فقد ارتدت البشرية عن الوحدانية بعد إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم ونسوا الإسلام الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء من بعد خليل الرحمن عليه السلام ، فيوسف

الصديق يسأل ربه أن يتوفاه مسلما ويلحقه بالصالحين : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين(١) » .

وعادت البشرية إلى الشرك بالله ودور تعدد الآلهة والأرباب بعد التوحيد ، حتى بنو إسرائيل ورثة العلم والتوحيد عبدوا العجل وما كان يعبد المصريون ، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليعيد الإسلام ناصعا كما كان أيام إبراهيم الخليل أبي المسلمين : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد(٢) » .

ولم يطق بنو إسرائيل التوحيد طويلا ، فقد طلبوا أن يرتدوا إلى الشرك والتعدد وموسى كليم الله فيهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » ، ولم يكتفوا بالتمني بل عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربه : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار(٣) » ، « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي (٤) » .

وترك موسى عليه السلام التوراة فاذا ببني إسرائيل يختلفون فيها وينقسمون إلى شيع وأحزاب كل طائفة تكفر الأخرى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب » .

(١) يوسف ١٠١ . (٢) هود ٩٦ — ٩٧ .
(٣) الأعراف ١٤٨ . (٤) الأعراف ١٥٠ . (١) هود ١١٠ .

وبعث الله داود إلى بنى إسرائيل وآتاه زبورا ليعيد بنى إسرائيل إلى الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة الذى لم يعرف الترقى ولا التبديل والتغيير . دين الفطرة الذى كانت رسالته على الدوام أن لا إله إلا الله . وورث سليمان داود واستمر فى الدعوة إلى التوحيد وإلى الإسلام : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين(١) » .

« قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين(٢) » .

وعرفت اليهودية كدين بعد داود وسليمان فلم يكن لها ذكر قبل ذلك ، فداود وسليمان كانا من نسل يهوذا الابن الرابع ليعقوب (إسرائيل) . فلما آل إليهما ملك بنى إسرائيل رأى رهط يهوذا أن ينتهزوا هذه الفرصة وأن تخلدوا حدث اعتلاء اليهوذيين عرش بنى إسرائيل لأول مرة . فنفوا عن داود وسليمان الرسالة وثبتوا لهما الملك فقالوا داود الملك وسليمان الملك ثم أطلقوا اليهودية على ما ابتدعوا من دين .

وإن الواقع التاريخى يؤيد هذه الحقيقة . وقد جاء فى القرآن الكريم : « ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا

(١) النمل ٣٠ — ٣١ . (٢) النمل ٤٤

مسلما وما كان من المشركين (١)» .

وقد عقد كل من هنرى برستيد فى كتابه فجر الضمير وأرثر ويجال فى كتابه حياة إخناتون مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد مزامير داود فاتفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر . وقد خلصا من ذلك أن المزامير قد أخذت معانيها عن ابتهالات إخناتون .

وقد يكون ذلك الاستنتاج صحيحا ولكنه لا يطعن فى رسالة داود . فان اليهود فى منفاهم فى بابل قد أعادوا كتابة التوراة متأثرين بالديانة البابلية والديانة المصرية . ولم يجعلوا داود نبيا بل ملكا له خطايا قد يترفع عنهـا سواد البشر . إن القرآن الكريم يقرر أن الله قد آتى داود زبورا كما آتى موسى فرقانا ولم يثبت أن المزامير الواردة فى توراة بابل هى الزبور الذى ذكره الله فى قرآنه .

وألف « فرويد » كتابا سماه « موسى والوحدانية » عقد فيه مقارنة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية . وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه . وهو أن موسى عليه السلام تربى فى مصر فى كنف الوحدانية ونشأ فى أعقاب المعركة بين آتون وآمون واستعد للنبوة فى هذه البيئة الموحدة فعلم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه . وكان خروج بنى إسرائيل — فى رأيه — فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أى فى الجيل التالى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية ...

(١) آل عمران ٦٥ — ٦٧ .

واسترسل فرويد فى تقديراته — وهو من بنى إسرائيل — حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى وليس من اللاويين كما جاء فى التوراة .

وقد رأى المنكرون للرسالات من رجال هذا العصر فى قول بريستد وويجال وفرويد ما يؤيد إلحادهم . واطمأنوا إلى هذه الاستنتاجات كأنما كانت حقيقة لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها ولا عن يمينها ولا عن يسارها . ولكن حفريات البحر الميت ألقت الضوء على رأى جديد يقول إن موسى كان فى عهد تحتمس الثالث وأن حتشبسوت هى التى التقطته من اليم . أى قبل عهد الصراع بين آمون وآتون وقبل أن يولد أخناتون . فزعزع ذلك الأكتشاف جبال الأوهام التى أقامهـــا فى الهواء بريستد وويجال وفرويد .

وطال على بنى إسرائيل الأمد فقست قلوبهم ونسوا الإسلام الذى جاءهم به موسى . فوصفوا الله بالصفات البشرية ونسبوا القرابة الإنسانية إليه . فأطلقوا على أبنائهم عمائيل (من العمومة) أو إيل أب من الأبوة . وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية .

ونسبوا إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب . وأنه دفن موسى حينما مات فى مؤاب ! ثم اتخذوا التماثيل رمزا للإله وسرعان ما عبدوها . وقد جاء فى الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثانى أن حزقيا ملك يهودا : « .. أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى

لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها » .

وغزا نبوخذ نصر (بختنصر) إسرائيل وحمل بنى إسرائيل أسرى إلى بابل . وفى أرض المنفى تأثر بنو إسرائيل بعقـــائد البابليين. ونسوا الجنة والنار وما جاءهم به موسى بعد أن حرق بختنصر كل نسخ التوراة . وفى أرض السبى أعاد أنبيـاء بنى إسرائيل كتابة التوراة فدسوا فيها أساطير الشعوب ووصموا أنبيـاء الله بكل نقيصة . ولما كان البابليون لا يؤمنون بالبعث ويقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها فقد خلت التوراة التى كتبت فى بابل من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الجب أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأيتام بعد الموت ولا نجاة منها لميت ... » وإن الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد » .

كان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث والحساب قبل أن تكتب التوراة فى بابل بآلاف السنين . فما رأى السادة علماء المقابلة بين الأديان القائلين بالترقى فى الديانات على مر العصور ؟ ألم يكن الفراعين الأولون أكثر رقيا فى العقيدة من بنى إسرائيل فى المنفى ؟

وفى ذلك الوقت قام فى فارس زرادشت يدعو إلى عبادة أهورامزدا إله النور . وعرفت فارس التوحيد واعتنق الناس ديانة زرادشت . وسرعان ما عادوا إلى عبادة النار ومزجوا الأساطير بالدين القيم فإذا بأهورامزدا يصبح على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة .

وعرف المجوس الثنائية فى العبادة فقالوا إن أهورامزدا إله

النور والخير وأهريمان إله الظلام والشر . وقد عرف الثنائية قبلهم قدماء المصريين فقالوا إن أزوريس إله الخير وست إله الشر . وقد كانت الثنائية معروفة منذ فجر التاريخ وهذا يدحض زعم علماء المقابلة بين الأديان بأن الثنائية تأتى غالبا بعد التوحيد وأنها ليست نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى ، لتنزيه الله والارتقاء بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة .

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقــدس وقد تأثرت ديانتهم بديانة البابليين وأساطيرهم . وضاقت آفاقهم الدينية فقالوا إن الإله هو رب إسرائيل وحدهم وزعموا أنهم الناس وأن من عداهم أمم : كلاب البشرية : وقالوا إن الذى يعيش فى بيت المقدس فهو يعيش مع الله ، ومن نام خارجها فهو لا يعيش مع الله ، ووصفوا « يهوه » إلههم بأنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه : وزعموا أن الرسالة فيهم وحدهم فهم شعب الله المختار .

يزعم بنو إسرائيل أن الله اصطفاهم وأن الرسالة والنبوة فيهم : ويزعم بعض علماء الأديان أن الرسالة والنبوة انحصرت فى الشرق الأوسط ويســوقون لذلك تفسيرات يحاولون أن يلبسوها ثوب العلم واليقين . ولكن الباحث فى ديانات الهند وفارس والممالك التى كانت معروفة فى زمن الرسالات يجد فيها آثار ديانات سماوية طمستها الأساطير لما طال على الناس العهد . وإن القرآن الكريم يقرر : « إن من أمة إلا خلا فيهـــا

نذير (١)» . «ولكل أمة رسول (٢)» :

ويذكر الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» أن اليونان عرفت النبوة وأن حكماءهم تأثروا بها ، وأن تاليس الملطى الذى كان أول من تفلسف فى ملطية وقال : إن للعالم مبدعا لا تدرك صفته العقول من جهة هويته إنما يدرك من جهة آثاره . وهو الذى لا يعرف اسمه فضلا عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء . فلسنا ندرك له اسما من نحو ذاته إنما من نحو ذاتنا . إنما تلقى مذهبه من مشكاة النبوة ، فتاليس يقول إن المبدع الأول هو الماء . وفى السفر الأول من التوراة : «إن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى . ثم نظر إليه نظرة إلهية فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السماوات . وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال» .

ويقول أنكسيمانس الملطى : «إن البارى تعالى أزلى لا أول له ولا آخر . هو مبدأ الأشياء ولا بدء له ، هو المُدْرِك من خلقه أنه هو فقط وأنه لاهوتية تشبهه وكل هوية فمُبدَعة منه . هو الواحد ليس كواحد الأعداد ، لأن واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر ... أبدع بوحدانية صورة العنصر ، ثم صورة العقل انبعثت عنها بيدعة البارى تعالى .

ويقرر الشهرستانى فى نهاية حديثه عن فلسفة أنكسيمانس : هو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس . وبعبارات القوم التبس» .

---

(١) فاطر ٢٤ (٢) يونس ٤٧

أما عن رأى أنباذ قليس فيقول الشهرستانى : « وهو من الكبار عند الجماعة . دقيق النظـــر فى العلوم رقيق الحال فى الأعمال . وكان فى زمن داود النبي — عليه السلام — مضى إليه وتلقى منه العلم واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ، ثم عاد إلى يونان وأفاد .

قال : إن البارى تعالى لم تزل هويته فقط وهو هو العلم المحض ، وهو الإرادة المحضة ، وهو الجود والعزة والقدرة والعدل والخير والحق ... لا أن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء ، بل هى هو وهو هذه كلها .

ويستمر الشهرستانى فى سرد مذاهب الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة . ويبدءون بثاليس الملطى وينتهون بأفلاطون ، مؤكدا أنهم قد أخذوا الحكمة من معدن النبوة . فيقول إن فيثاغورس الذى ادعى أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحدسه وبلغ فى الرياضة إلى أن سمع حفيف الفلك ووصل إلى مقام الملك وقال : ما سمعت شيئا قط ألذ من حركاتها . ولا رأيت شيئا أبهى من صورها وهيئاتها . وقال إن البارى تعالى واحد لا كالآحاد . ولا يدخل فى العدد ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس ، فلا الفكر العقلى يدركه ولا المنطق النفسى يصفه . فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك بآثاره وصنائعه وأفعاله . فيثاغورس هذا كان فى زمان سليمان النبى ابن داود عليهما السلام .

وسقراط اقتبس الحكمة من فيثاغورس واقتصر من أصنافها على الإلهيات والأخلاقيات ، واشتهر بالزهد ورياضة النفس .

وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل إلى الجبل وأقام في أعلاه . ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان فثوّروا عليه الغاغة وألجئوا ملكهم إلى قتله ، فحبسه الملك ثم سقاه السم :

قال سقراط : إن الباري تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه ، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره ، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا والمسمىّ لكل موجود اسما ، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ، وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا ؟ ! . فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله ، وهي أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته . وذلك مثل قولنا : إله أي واضع كل شيء ، وخالق أي مقدر كل شيء ، وعزيز أي ممتنع أن يضام ، وحكيم أي محكم أفعاله على النظام . وكذلك سائر الصفات .

ثم إن مذهب « سقراط » أن أخص ما يوصف به الباري تعالى هو كونه حيًّا قيوما ، لأن العلم والقدرة والجود والحكمة ... تندرج تحت كونه حيا . والحياة صفة جامعة للكل ، والبقاء والسرمد والدوام وحفظ النظام في العالم تندرج تحت كونه قيوما . والقيومية صفة جامعة للكل .

وربما يقول : هو حي ناطق من جوهر أي من ذاته ، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور

والفســـاد ؛ ولا يتطرق إلى حياته ونطقه — تعـــالى وتقدس .

ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود إما متصلة بكلها وإما متميزة بذواتها وخواصها ؛ فاتصلت بالأبدان استكمالا واستدامة ، والأبدان قوالبهـــا وآلاتها فتبطل الأبدان وترجع النفوس إلى كليتها .

وقال الشهرستانى عند الحديث عن رأى أفلاطون الإلهى إنه آخر المقـــدمين الأوائل الأساطين معروف « بالتوحيـــد » والحكمة ، ولد فى زمن أردشير بن دارا فى سنة ست عشرة من ملكه ، ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه وجلس على كرسيه ، وقد أخذ العلم من سقراط وطيماوس وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضة .

وحكى عنه قومه ممن شاهده وتتلمذ له مثل : أرسطاطاليس أنه قال : إن للعالم محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته ، عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية ، كان فى الأزل ولم يكن فى الوجود رسم ولا طلل إلا مثالا عند البارى تعالى ، ربما يعبر عنه بالهيولى وربما يعبر عنه بالعنصر ولعله يشير إلى صور المعلومات فى علمه تعالى .

قال : فأبدع العقل الأول وبتوسطه النفس الكلية . وقد انبعثت عن العقل انبعاث الصورة فى المرآة وبتوسطها العنصر .

وقال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية ، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور

الجسمانية ، كالمرآة المجلوة التي تنطبع فيها صور المحسوسات . فإن الصور فيها مثل الأشخاص ، وكذلك العنصر — في ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ، غير أن الفرق أن المنطبع في المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس في الحقيقة كذلك، وأن المتمثل في المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هي موجودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك ، فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور في المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات القائم ، وهي تتمايز في حقائقها تمايز الأشخاص في ذواتها .

وقال : وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية . لأن كل مبدَع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورته في علم الأول الحق والصور عنده بلا نهاية ، ولو لم تكن الصور معه — في أزليته — في علمه لم تكن لتبقى ، ولو لم تكن دائمة بدوامها لكانت تدثر بدثور « الهيولى » ؛ ولو كانت تدثر مع دثور الهيولى لما كانت على رجاء ولا خوف ولكن لما صارت الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها ، وإنما تبقى إذا كانت لها صور عقلية في ذلك العالم ترجو اللحاق بها وتخاف التخلف عنها .

قال : وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا وعقلا ومعقولا . وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهي محدودة ومحصورة بالزمان والمكان . فيجب أن نشاهد بالعقل جميع المعقولات وهي غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ،

فتكون مُثلا عقلية .

أخذ الحكماء السبعة حكمتهم من مشكاة النبوة . فلما طال على الناس العهد تشعبت آراء الفلاسفة وحكمهم . وقد تفلسف أهل الكتاب الأول والعلم الأول بعد أن أفسدوا التوراة فى أرض المنفى ، وكان أقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة فيلون السكندرى الذى ولد فى السنة العشرين قبل الميلاد وتوفى بعد ذلك بنحو سبعين سنة .

تقدم اليهود فى الزمن وتقدموا فى دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه فى مدينة الإسكندرية قبيل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة فى العالم المتحضر بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الإغريق .

تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة . فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التى أسندت إلى الله فى كتب اليهود بدلالتها الحرفية ونصوصها الظاهرة . ولم يستطع أن يجارى الفلاسفة فى عزلهم بين الله ومخلوقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات .

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتنزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم . وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئا . غير أنه موجود ولكنه فى وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول .

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق وبين مخلوقاته فى هذه

الصور المادية ؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التى أسندت إليه فى كتب أنبياء اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبلها على الرمز والمجاز ، ويقول إنها تنطوى على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص يفهمها المستعدون لها على درجات ، وأما الاتصال بين الخالق والمادة فإنما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، فالعقل يصدر عن الله والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنتظم وتتعدد فيها طبقات المخلوقات .

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التى تشبه القول بوحدة الوجود وتجعل الله من العالم والعالم من الله ، ولكنه كذلك كان يرفض مذهب أرسطو فى تجريده الله عن العمل فى المخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضى هذا التجريد . قال : إن بعضهم ممن فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصانعه يقولون إن العالم أبدى بغير بداية ، وينسبون إلى الله نسبة خلت من التقوى والحق إذ يجردونه من العمل وكان أحرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته : قدرة الصانع والأب ، ولا يتجاوزوا الحد فى تعظيم العالم وتمجيده . وقد كان موسى الذى بلغ الذروة فى الفلسفة واهتدى بوحى الله إلى أعمق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد فى الكون سبب محرك ومادة لا حراك بها ، وأن السبب المحرك هو العقل أو هو عقل الكون الطهور الذى يعلو على الفضيلة والعلم . ويعلو على الخير نفسه وعلى الجمال نفسه .. أما المادة التى لا حراك بها فليست لها روح حياة ولا صلة لها بالحركة من عند ذاتها ،

ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت منه روح الحياة صارت إلى هـذا الصنع المحكم العجيب المتجلى لنا فى هذا العالم .

وإن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يبصرون أنهم يقطعون بذلك الحسبان ألزم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية ، لأن العقل ينبئنا أن الأب الخالق يعنى بما خلق ... » .

ورفض فيلون زعم الزاعمين أن الله تحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وزمان . ويرفض زعم الزاعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله . وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » لهذه الموجودات الأرضية . وأن موسى عليه السلام هو « الكلمة » الذى استجاب الله دعاءه فى سيناء : وهو الذى خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية » (١) .

قال : إن الله أحد . ولكنه بقدرته خير حاكم . فبالخير صنع العالم وبالحكم يدبره . وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة . لأن الله — بالكلمة — يجود ويحكم .. والكلمة كانت فى عقل الله قبل جميع الأشياء .. وهى متجلية فى جميع الأشياء » .

وكان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية فى بنى إسرائيل . فتابعه أناس فى التأويل والتفسير . وأحجم الناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم . وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم الملتزمون للنصوص وبين الربانيين الذين يجيزون تفسيرها والتوفيق بينها وبين مقررات العلم ومذاهب الحكمة .

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد .

أفسد اليهود التوراة فى أرض بابل وكتبوها بأيديهم وأضافوا إليها سير من قاموا بخدمات لشعب بنى إسرائيل . فانحرفت من كتاب منزل من السماء إلى كتاب أدب وتاريخ يسجل أعمال البارزين فى التاريخ اليهودى . واعتنق بعض مفكرى اليهود المذاهب الفلسفية التى انتشرت فى ذلك الوقت فإذا بالقلوب تقسو وإذا بشطحات الفكر تقود إلى الكفر والشرك بالله . وإذا بالزمان يصبح فى حاجة إلى رسول من عند الله ليزيل الأساطير التى رانت على الضمائر ويعيد إلى الأرض الإسلام دين الله . فأرسل الله إلى بنى إسرائيل المسيح عليه السلام . « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » . (١)

ودعا المسيح عليه السلام إلى الإسلام وآمن له الحواريون : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » . (٢)

ولم يطل مكث الإسلام الذى جاء به المسيح فى الأرض فقد قام بولس بمزج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولا سيما فلسفة الحلول . وراح يقول إن المسيح جالس على يمين الله ويدعو لمن يقلب لهم الخبز « أن تسكن فيهم كلمته » . ويسأل لهم الغفران منه

(١) الحديد ٢٦ — ٢٧ . (٢) المائدة ١١١ .

ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض .

وأشار إلى المسيح عليه السلام فى صلواته : « باسم ربنا يسوع المسيح » . وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح » . وإن كان القرآن الكريم يؤكد أن الله قد تاب على آدم بعد خطيئته : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه(١) » إلا أن بولس استمر يؤكد أن أبناء آدم قد توارثوا خطيئته وسماها « الخطيئة الموروثة » ، وقال إن المسيح إنما صلب ليطهر البشرية من تلك الخطيئة .

وكان لنظرية بولس أعمق الأثر فى إلحاد من ألحدوا من منكرى المسيحية وفلاسفتها . فنظرية الخطيئة الموروثة لا تستقيم مع عدل الله الذى يقرره فى كل دياناته السماوية : « ولا تزر وازرة وزر أخرى(٢) » . « وأن ليس للانسان إلا ما سعى (٣)» .

فاضت كتب رجال الدين وآباء الكنيسة وبسكال وبوسويه وماسيون وغيرهم من الناطقين باسم التقليد المسيحى بفكرة أن الإنسان فى نظر هؤلاء جميعا مخلوق وضيع لا يملك أية طهارة ولا يتمتع بأية فضيلة ولا تنطوى نفسه على أية براءة ! إنه عند أصحاب نظرية الخطيئة الأولى « مخلوق ساقط بهيمى تعميه شهوته الدنيئة بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم أو لولا احترامه لسلطة المجتمع لأقدم على ارتكاب أدنى الموبقات . ولما تورع عن إتيان أحط الجرائم ! (٤) .

---

(١) البقرة ٣٧ . (٢) فاطر ١٨ . (٣) النجم ٣٩

(٤) مشكلة الانسان : الدكتور زكريا ابراهيم .

احتدم الخلاف بين المجامع والكنائس لما اعتنق أباطرة الرومان الدين المسيحى كما جاءهم به بولس ، واشتد الجدل حول تفسير كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة ، واختلفوا فى أقانيم الثالوث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طبيعة واحدة أو ذو طبيعتين إلهية وإنسانية ؟ وهل هو إله أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الأب والابن معا ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط أو أن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو أن الكلمة هى الأب والإله ؟

ظل شبح « الخطيئة الموروثة » يطارد أفكار المفكرين والفلاسفة حتى بعد القول بأن الصلب كان كفارة عنها ، وذلك يظهر بوضوح فى فلسفة نيتشه فهو يقول :

« إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض ، فانه لابد للمؤمنين بالحس الأرضى مع أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة » .

وراح نيتشه ينادى : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله .. لقد صرنا بشرا ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض .. إلى أين مضى الله ؟ سأقول لكم إلى أين مضى ! لقد قتلناه . أنتم وأنا ، أجل نحن الذين قتلناه . نحن جميعا قاتلوه ! ألا تشمون رائحة العفن الإلهى ؟ .. إن الآلهة أيضا تتعفن ! لقد مات الله وسيظل ميتا » .

وكتب نيتشه يقول : « إن فكرة الله قد بقيت حتى الآن أقوى اعتراض ضد الوجود ... ونحن جميعا ننكر الله وننكر

مسئولية الله فاننا عن هذا الطريق إنما ننقذ العالم » .

ويردد سارتر عبارات نيتشه فيقول : « إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى أنه غير موجود أو أنه لم يعد موجودا ، بل إن الله قد مات بمعنى أنه كان يحدثنا فى صمت فلم نعد نستطيع أن نلمس منه الآن إلا جثة هامدة ، إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الإنسان قد أصبح ملحدا ، فإن صمت المتعالى ، مضافا إليه استمرار قيام الحاجة الدينية لدى الإنسان الحديث ، إنما هو فى صميمه مشكلة كبرى ، وهذه المشكلة التى ثارت بالأمس كما تثور اليوم إنما هى المشكلة التى لا زالت تؤرق نيتشه وهيدجر ويسبرز » .

أرقت فكرة « الخطيئة الأولى » رجال الفكر مذ قال بها بولس . فهى فكرة إن دلت فانما تدل على ظلم الإله الذى ينبغى أن ينزه عن كل نقيصة ، وقد دارت حولها مناقشات على مر العصور حتى دفعت بعض الفلاسفة فى العصر الحديث إلى أن يقولوا إن الله قد مات .

ثارت المشكلات اللاهوتية وشغلت عقول الباحثين بين المسيحيين . وذهب الدين المسيحى شيعا مختلفة لكل شيعة قوانين تناقض نفسها . وصار بعض العقائد لا يتفق فى شىء مع ما جاء به المسيح عليه السلام على الرغم من قرب العهد . فمن قائلين إن التثليث يشمل الأب والابن وروح القدس إله واحد . كما يتكون الإنسان من جسم وروح وعقل باطنى . ومن قائلين إن المسيح ابن الله ولكنه منفصل عنه وأقل منه . ومن قائلين إن للمسيح طبيعتين مختلفتين إلهية وإنسانية وأن مريم إن هى إلا أمه وإنه لمن

الكفر أن تدعى أم الإله . ومن قائلين إن عيسى هو الله قبل التجسد وبشر أثناء التجسد . ومن شيعة من النساء يعبدن مريم العذراء . ومن مريميين يقدسون التثليث ، فالله الأب والله الابن والله الأم مريم .

وضاع الإسلام الذى جاء به السيد المسيح فى ركام الفلسفة والأساطير ، وظهر الفساد فى البر والبحر وبدا أن شجرة الحضارة قد دب فيها الفساد حتى اللباب . وفى ذلك الوقت أرسل الله محمد ابن عبد الله ليدعو الناس كافة إلى الإسلام .

إن النظرية الإسلامية تقرر أن الأصل التوحيد ثم الشرك كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، ثم التوحيد فالشرك . وإن الواقع التاريخى يؤيد ما جاء فى القرآن الكريم وينكر كل الإنكار ما زعمه علماء المقابلة بين الأديان من أن الإنسان قد ترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم .

وكان الإسلام منذ بدء الخليقة هو دين الله ، دعا إليه كل الرسل والأنبياء لم يعرف الترقى . ويؤيد ذلك قول الله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام(١) » . « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه(٢) » .

وقد أنزل الله على رسله كتبا لهداية البشر فاندثرت أو حرفت أو كتبت بأيدى الناس ثم قالوا : هذا من عند الله . ولما كان الله سبحانه وتعالى قد جعل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات فقد كتب على نفسه حفظ كتابه الكريم .

فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(٣) » .

---

(١) آل عمران ١٩ . (٢) آل عمران ٨٥ . (٣) الحجر ٩ .

وإن كل يوم يمر والقرآن بين الناس ليزيد هذه الحقيقة تأكيدا .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه « الله » : فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية . وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية .

فاذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على « الضمير الإنسانى » وبشر الناس برحمة السماء — فرسالة الإسلام التى لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية فى الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها جانب على جانب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير . بل له المثل الأعلى وليس كمثله شىء .

فالله وحده لا شريك له « ولم يكن له شريك فى الملك(١) » .. « فتعالى الله عما يشركون(٢) » .. « سبحانه وتعالى عما يشركون(٣) » . والمسلمون هم الذين يقولون : « ما كان لنا أن نشرك بالله(٤) » .. « ولن نشرك بربنا أحدا(٥) » . . ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء وله الأسماء الحسنى .

(١) الفرقان ٢ . (٢) الاعراف ١٩٠ . (٣) يونس ١٨ .
(٤) يوسف ٣٨ . (٥) الجن ٢

فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة . ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة . فهو قادر على كل شيء وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمان رحيم غفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شيء و « يختص برحمته من يشاء(١) » .

وهو الخلاق دون غيره و « هل من خالق غير الله(٢) ؟ » .

فليس الإله في الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى ، ولكن « الله خالق كل شيء(٣) » .. و « خلق كل شيء فقدره(٤) » .. و « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده(٥) » .. « وهو بكل شيء عليم(٦) » .

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر ردا على « فكرة الله » في الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية ، فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها . ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه .

ولكن الله في الإسلام « عالم الغيب والشهادة(٧) » و « لا يعزب عنه مثقال ذرة(٨) » ... « وهو بكل خلق عليم(٩) » .. «وما كنا عن

(١) البقرة ١٠٥ . (٢) فاطر ٣ .
(٣) الزمر ٦٢ . (٤) الفرقان ٢ .
(٥) يونس ٤ (٦) الانعام ١٠١
(٧) الانعام ٧٣ . (٨) سبأ ٣ (٩) يس ٧٩ .

الخلق غافلين(١) » ... « وسع كل شيء علما(٢) » ... « ألا له الخلق والأمر(٣) » ... « عليم بما في الصدور(٤) » .

هذا هو رأى الأستاذ العقاد وهو فى كل ما يقرر متأثر بفكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم والصناعات ، وإنى أرى أن الأستاذ العقاد قد قارن بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية بعد أن اعتورهما التبديل والتحوير لما طال على الناس الأمد فقست قلوبهم ، ولكن الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن الإسلام الذى دعا إليه جميع الرسل والأنبياء لا يختلف عن الإسلام الذى دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فالفكرة الإلهية فى كل من دعوة موسى عليه السلام ودعوة عيسى عليه السلام لا تختلف عن الفكرة الإلهية التى دعا إليها رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فهى فكرة تامة فى كل الديانات السماوية . فان كانت عوارض قد عرضت للديانات الغابرة فما ذلك من عند الله ولكنه من عند الناس . وإن كان الإسلام الذى دعا إليه محمد عليه السلام أكد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فجميع الديانات السماوية قد أكدت نفس الدعوة وأكدت علمه وأنه عالم الغيب والشهادة وأنه الخلاق دون سواه .

إن دين الله لم يعرف الترقى منذ آدم : إنه ثابت لا يتغير وكل ما كان يعتوره من تبديل إنما بفعل البشر كلما طال عليهم العهد . « أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم(٥) » ..

---

(١) المؤمنون ١٧
(٢) طه ٩٨
(٣) الاعراف ٥٤ .
(٤) الشورى ٢٤
(٥) طه ٨٦ .

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر (١) » ... « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم (٢) » . « ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر (٣) » .

واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، وقد جاء فى القرآن الكريم : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (٤) » . فالله قد فطر البشر على أنه لا إله إلا هو : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله (٥) » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود على الفطرة » فالله سبحانه وتعالى يخلق عباده حنفاء والآباء يفسدون الفطرة بما يلقنون الأبناء من خرافات وأساطير .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتى بعد دور التعـــدد ودور التميز والترجيح ودور الوحدانية ودور الثنائية ، توفيقا بين التقائض والضرورات وإثباتا لوجود الله من طريق ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان . ووحدة الوجود باختصار هى القول بأن الله سبحانه وتعالى هو جميع هذه الموجودات . وأنها ليست فيه على سبيل التجزئة والتفرقة ولكنها تكمن فيه كما يكمن الربع والنصف فى الواحد . فليس هو كله وليس هو منفصلا عنه وليس هو موجودا على التحقيق ولكنه

(١) الأنبياء ٤٤ (٢) الحديد ١٦ . (٣) القصص ٤٥ .
(٤) الاعراف ١٧٢ — ١٧٣ . (٥) الروم ٣٠ .

موجود بالإضافة إلى وجود الله ، أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع ، فهو ليس بمعدوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا ينفصل عنها .

أرادت الفلسفة أن تجد تفسيرا للوجود فقالت إن هذا الوجود إنما هو تعبير عن الموجود وتعريف به حين أراد أن يعبر عن نفسه ليعرف . والإسلام فى هذه القضية واضح كل الوضوح ، فهو يقرر إذعان الإنسان لخالقه والإقرار بالعبودية لله وحده دون سواه وقدرة الموجد وحكمته وجلاله وعظمته . فكل موجود قد أوجدته القدرة الإلهية وهو مقهور لهذه القدرة مسير بأمرها ويؤدى ما يجب للمعبود على العباد من طاعة وشكر : « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم(١) » .

وقد عرف بعض متصوفة الإسلام وحدة الوجود . ويقول لسان الدين بن الخطيب فى مفهوم هذه الوحدة عند الصوفيين الموغلين فى التصوف : « إن الزمان والمكان والغيبة والظهور والألم واللذة والوجود إنما هى عندهم أوهام راجعة إلى إخبار الضمير وليس فى الخارج شيء .. فاذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما .. واحدا .. ذلك أن الواحد هو الحق وإنما الحق مؤلف من طرفى حق وباطل ، فاذا سقط الباطل — وهو اللازم — بالأوهام . لم يبق إلا الحق ! ؟

والتعبد عندهم عبارة عن التزام الأوهام الواقع بها التعدد والتعدد باطل ! وقالوا : العالم لا يصح أن يقال فيه قديم ومحدث .

(١) الحشر ١ .

إذ ذلك مبنى على الزمان .. والزمان وهم إذ هو مقدار الحركة .. والحركة وهم .. وما ثم إلا حيز مجرد .. لا شيء منه فى الخارج » .

وهذا التصوير يكاد يكون نقلا عن الفلسفة الرواقية التى تنكر معطيات الحواس وتذهب إلى دفع كل ما تجيء به من أنباء عن عالم الحس وعدها كل ذلك من عمل الوهم والخداع .

ويقول ابن خلدون فى فلسفة الوحدة عن بعض المتصوفة الذين يؤمنون بأن وحدة الوجود لا تقوم على الشك فى معطيات الحواس وإنما تستند إلى نشأة الوجود وإلى الصلة بين الخالق وما خلق : « وأول مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال باضافة الإيجاد والظهور لقوله سبحانه فى الحديث القدسى الذى يتناقلونه : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى » .

وهذا الكمال المتنزه فى الوجود وتفصيل الحقائق هو عندهم عالم المعانى والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية ، وهذا كله تفصيل للحقيقة المحمدية .. وتصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى الحضرة الهبائية وهى مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسى ثم الأفلاك ثم العناصر ثم عالم التركيب .. هذا فى عالم الرتق ، فاذا تجلت فهى فى عالم الفتق .. ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضرات .. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه » .

ويقول ديبور فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : « غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا بأن قالوا : بأنه لا موجود فى كل شىء إلا الله ، ومن هذا المنزع الأخير نشأ مذهب فى وحدة الوجود خالف مذهب جمهور المسلمين وكان من شأنه أن جعل العالم خيالا لا حقيقة ، كما وجد بين الإنسان وذات الله .

وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية — أى نفى الصفات عن الله وأنه عين صفاته — قال المتصوفة بوحدة شاملة لكل شىء . وبعد أن كان الأولون — أى الجبرية من المعتزلة — يقولون بفعل الله فى كل شىء قال الآخرون — المتصوفة — بوجود الله فى كل شىء » .

وفى أقوال القائلين بوحدة الوجود من المتصوفة خروج على مقررات الشريعة ومفاهيمها خروجا واضحا ، بل عودة إلى الشرك وعبادة غير الله ، فالجبلى أحد شيوخ المتصوفة يقول : « إن الحق من حيث ذاته يقتضى ألا يظهر فى شىء وإلا ويعبد ذلك الشىء . وقد ظهر — أى الحق — « الله » فى ذات الوجود ، فحق أن تعبد هذه الذوات وليس شىء منها أولى من شىء بتلك العبادة » .

طال على الناس الأمد فقست قلوبهم وما كان الله ليبعث رسولا بعد محمد عليه السلام ، فكتاب الله بين أيدى الناس يرجعون إليه وينهلون من مناهل الحق وقد كتب الله على نفسه أن يحفظه .

ولقد عرفنا آراء بعض الفلاسفة والمفكرين على مر العصور فى ذات الله . وإن خير ما نختم به هذا التذييل سرد خطبة للامام على بن أبى طالب ربيب النبوة يتحدث فيها عن الله :

« الحمد لله الذى لا يبلغ مِدْحَته القائلون ، ولا يُحصى نعماءه العادُّون . ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بُعد الهِمم ، ولا يناله غوص الفطن . الذى ليس لصفته حدٌّ محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود . فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووطد بالصخور ميدان أرضه .

أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن قال : « فيم » فقد ضمنه ، ومن قال : « علام » فقد أخلى به (١) .

كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزاولة . فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه . متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها . ولا همامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها . ولاءم بين مختلفاتها ، وغرز غرائزها . وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا بحدودها وانتهائها . عارفا بقرائنها وأحنائها » .

(١) من تصور أنه على الكرسى أو العرش فقد أخلى منه غير ذلك الموضع .

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

عمدة التفسير — للحافظ ابن كثير

تاريخ الطبرى

شرح نهج البلاغة — لابن ابى الحديد

السيرة النبوية — لابن هشام

مشكلة الانسان — للدكتور زكريا ابراهيم

مشكلة الحرية — للدكتور زكريا ابراهيم

الأغانى — لأبى الفرج الأصفهانى

الملل والنحل — للشهرستانى

الله .. ذاتا وموضوعا — لعبد الكريم الخطيب

الله — لعباس محمود العقاد

اسباب النزول — للنيسابورى

Moses and Monotheism — لفرويد

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

السيرة الحلبية — لعلى برهان الدين الحلبى

للمؤلف

الطبعة الاولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو	سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو	سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو	سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر	سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو	سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير	سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر	سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير	سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية		سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو	سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصة		سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو	سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم			سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة			سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية		سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص		سنه ١٩٥٣
حياة الحسين			سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة		سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	دسمبر	سنة ١٩٥٧

الطبعة الاولى

ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨	
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨	
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨	
ارملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩	
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩	
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١	
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢	
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣	
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤	
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥	
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧	
عمرو بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢	
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢	
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥	
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥	

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الانبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
العرب فى اوروبا	فى ٢٤ جزءا

محمد رسول الله

والذين معه

في عشرين جزءا

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

	مليم	جنيه
ثمن الجزء الواحد	٥٠٠	—
ثمن المجموعة كاملة	٠٠٠	١٠

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

فى ٢٠ جزءا

١ ـ ابراهيم ابو الانبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـ بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧ ـ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـ دعوه ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ـ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـ غزوة بدر	نوفبر ١٩٦٨
١٣ ـ غزوة احد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـ صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦ ـ فتح مكة	نوفبر ١٩٦٩
١٧ ـ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـ حجة الوداع	نوفبر ١٩٧٠
٢٠ ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ١٥٣٩ / ٧٨
الترقيم الدولى ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه